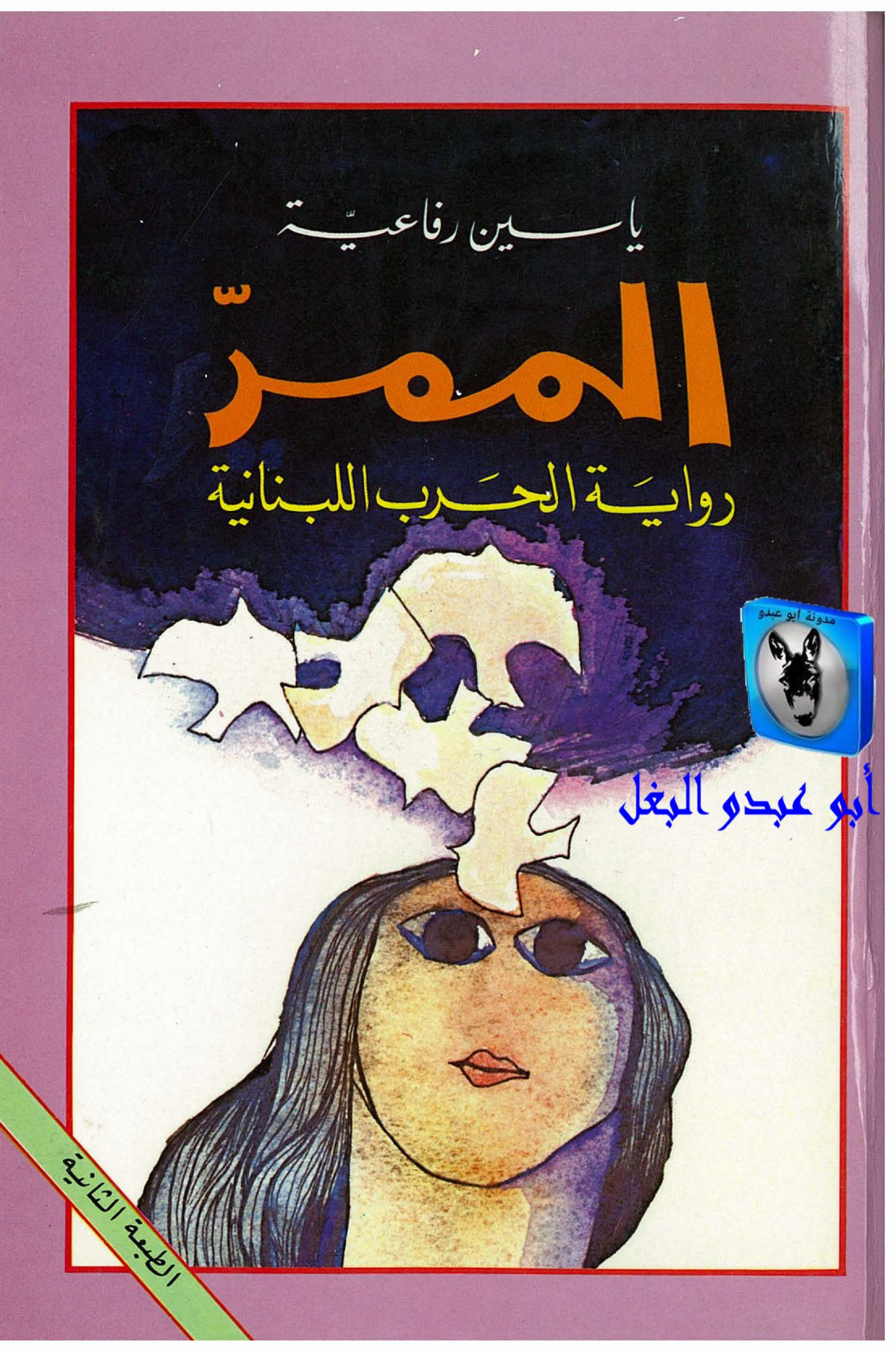

ياسين رفاعيّة
الممرّ
روايـة الحـرب اللبنانية
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
الطبعة الثانية

ياسين رفاعية

الممر

رواية

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا - موكيالي - بيروت - ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الغلاف: الفنان اميل منعم
الاخراج والخطوط: **اسامة حديب**
فرز الالوان والتصوير: **نعمان قره واعظ**

الإهــداء

الى أمل جراح ..



- ١ -

ذلك اليوم ، انهمر رصاص غزير ، فدبّ الفزع بين الناس ، وأخذوا يتراكضون • كادت سيارة المرسيدس تنجـو ، لولا أن رصاصـاً اخترق زجاجها الأمامي ، فانحرفت شمالا • « رنا » في المقعد الخلفي • لامست صدرها ، ثم يديها ، وهي تكتم صرخاتها • رسمت صليبا على صدرها • أرادت أن تقول شيئاً ، لكن رصاصاً آخر أخـذ يمزق أطراف السيارة ، وانتبهت الى السائق الذي انكبّ على مقوده ، جسده ورأسه يتفجـران بالدم ، صرخت ، تلفتت بذعـر ، أدركت أنهـا نجت • أرادت أن تصرخ من جديد ، تستنجد • لكن الشارع خـلا من المـارة ، وظهر مسلحون بكثرة ، بعضهم ارتمى أرضاً وراح يطلق الرصاص • ترتبك رنا « ماذا أفعل ؟ » ترتجف • الرعب يخترق أطرافها ، حسمت رشقة رصاص مزقت سقف السيارة ، ترددها • قفزت الى الخارج • راحت تركض • أحست أن رصاصا كثيرا تساقط من حولها • بل كانت تسـمع أزيز الرصـاص يولول ملامسا أذنيها • ظلت تركض بكل ما فيها من قوة • فقدت فردة من حذائها • قذفت بالاخرى وراحت تركض حافية •

كانت « رنا » هذه اللحظـة وسط جحيم • صرخت ، هتفت « نجني

يا رب » • غلب الرصاص أصوات انفجارات حادة « يا الهي •• علقت » • انتبهت وهي تتجه صوب بناية أن مسلحا ملثما يقف في مدخلها ، قد أسند ظهره الى الجدار يطلق رصاصا من بندقيته • ارتدت مسرعة الى الوراء تعدو من جديد • اقتربت من بنـاية أخرى • فاندفعت الى داخلها ، واصطدمت بباب الطابق الاول • دقت بعنف عليـه بقبضتيها • فتح الباب ، أمسكت بساعدها يد قوية• جذبتها الى الداخل• أغلق الباب• تقدمت رنا خطوات• لحظات ، بدا لها كأن الرصاص يطلق في قارة أخرى • تلاشت • انسحبت أحاسيسها خارج الجسد• تساقطت في هوة • رفعت يدها تحاول الامساك بشيء ما • بيد • بغيمة • انهارت ••

وكأن جدارا انشق، يفسح للنور ، يبدد الظلمات ، رنا عروس ، يتقدم منها فارس نبيل ، يمتطي صهوة حصان أبيض ، لم يكن يحمل بيده سيفا ، بل صليبا لامس به جبهتها • فصدرها • شاع في نفسها الهدوء • أحست رنا كأن عالما من الشـر قد القت به وراء ظهرها • بل لعلهـا استيقظت من كابوس حلم ، بدأ بالصراخ وانتهى بالرصاص • قامت •• أمسك الفارس براحتها •• ثم رفعها الى صهوة حصانه ، جلست خلفه ، عانقته مطمئنة • رمت رأسها على ظهره • وفيما أخذ الحصان يشق عباب الريح بخطوات لا صوت لها ، استسلمت رنا • وغفت ••

- ٢ -

كان دهرا ، ربما ، لكن رنا بدأت تستيقظ •• الرصاص بعيـد •• الانفجارات بعيدة ، أمام عيني رنا ظلالات ، غبش يملأ أجفانها بالغبار • انتبهت انهـا مستلقية ، كأنها تستيقظ من قبر ، بل خشيت أن تكون في قبر • آه ، مرة شاهدت حلما ، فيه امرأة دفنت حية ، ثم استيقظت لتجد نفسها في قبر • ما أشده هولا أن تكون في قبر ! لكنهـا تتنفس ، انهـا تتنفس •• تستنشق هواء معبأ بالغبار والبارود • بل ها هو من جديد • ذلك المخلوق الفولاذي الصغير الشرس « الرصـاص » يعود ثانيـة •• يشتد • يلعلع • ترافقه انفجارات •• تسبقه ، وتضاهيه •

بدأت رنا تفتح عينيها « من أنت ؟ » كادت تصـيح ، رجـل هادىء النظرات ، يدخن لفافة تبـغ ، ويلامس بيـده الاخرى جبينها • يضغط بأصابعه على جبهتها • كادت مرة ثانيـة تسأل •• أحسـت بالخـوف • وكانت ستصرخ ، بل لعلها صرخت • فاذا بصوت قريب قريب يهمس في قلبهـا :

ــ لا تخافي •• أنت في أمان ••

تحركت قليلا ، أخذت تلامس جسدها براحة يدها • الصوت :

ـ لا تخافي •• لم يصبك أذى •• أنقذك الله •• أنت في أمان ••

ـ لكن ••

أرادت أن تتكلم • لم تستطع • نظرت حولها • انها في ممر بيت ، ضيق وشبه مظلم • تحتها بطانية صوفية ، رأسها يستند الى وسادة • الى جانبها كأس ماء • مكتبة ملتصقة بالحائط • لوحة بنية الاطار لوجه أبيض كالثلج ، يطل في نظرة حالمة • هاتف في الزاوية • مشجب عليه جاكيت ، باب مغلق ، باب آخر • مزهرية فيها ورد يميل الى الذبول • ثم ••• ثم ها هو ذا الرجل ، يجلس قريبا منها على كرسي من القش واطىء • يرمقها بقلق • الرصاص يلعلع • ومرة ثانية ، وربما ثالثة أو رابعة • أرادت أن تقول شيئا • قال الرجل :

ـ ارتاحي ••

رفعت يدها قليلا مشيرة صوب الباب • الصوت :

ـ لا تخافي •• لا تخافي •• ستهدأ •• وستخرجين الى بيتك ••

انفجار هائل اهتز له البناء ، بل ان رنا أمسكت برأسها بين راحتيها وصرخت •• ها هي تسمع صوتها من جديد • بل هي تحملق في السقف • هل سقط السقف ؟ غبار • غبار • مرة أخرى الصوت :

ـ حافظي على هدوئك •• والا متّ من الهلع •

اشتد أزيز الرصاص والانفجارات • ترك الرجل مكانه • اقترب من الباب • تحول الى المكتبة الملتصقة بالجدار • بذل جهدا لزحزحتها • فشل • أخذ يسحب الكتب منها ويرمي بها أرضا • حاول من جديد أن يحرك المكتبة • عاندها • شد عليها • تحركت • دفع بها • حركها ، بعد جهد ، قليلا • أحست رنا بالقوة تدب في يديها وقدميها • شبت نحو المكتبة ،

تساعده في دفعها ، تحركت المكتبة • الى أن ألصقاها بباب المنزل مباشرة• ثم أخذا يعيدان الكتب الى رفوفها • تحرك الرجل بعد أن انتهيا • وجاء بأشياء مختلفة وألقى بها أمام المكتبة • قال الرجل مخاطبا رنا :

ـ شكرا •• استريحي الآن •

عادت رنا وجلست فوق البطانية الصوفية •

دخل الرجل الى الصالون • ثم غاب قليلا ليعود بفرشة من الاسفنج• ألقاها أرضا قائلا :

ـ ستنامين عليها •

وغاب ليعود بكأس من الماء • قدمها لها ، تلك اللحظة أحست أنها عطشانة •• وان فمها جاف •• أخذت الكأس وجرعتها بسرعة • صوت الرجل الهادىء :

ـ هنيئا ••

أحنت رأسها قليلا وكادت تبتسم •• سحب الرجل من جيبه علبة لفائفه ، وقدمها لها • لاول مرة تكلمت :

ـ لا أدخن ••

أشعل لنفسه لفافة • كان ينظر بين لحظة وأخرى نحو الباب قلقا • ثم يعاود النظر الى رنا مبتسما • قالت رنا قلقة :

ـ سأخرج •• لن أستطيع البقاء طويلا هنا •

هز الرجل رأسه • ابتسم :

ـ تخرجين ! كيف ؟

أحنت رأسها قليلا ، أمسكت صليبا صغيرا متدليا من عنقها • وراحت تداعبه بأصابع متوترة :

ــ أهلي سيقلقون ••

وقف الرجل ، وخطا نحو الباب • انفجارات هائلة تهز البناء • كأن شيئا في الداخل سقط وتحطم ، قال الرجل :

ــ يقلقون •• لا بأس • لكن من الافضل أن تبقي على قيد الحياة • خروجك يعرضك للخطر • الناس تموت في الخارج • اذا أخطأك الرصاص في المرة الاولى •• فلن يخطئك هذه المرة •

كان الرجل يتحدث بهدوء • الآن تنتبه له رنا : أسمر • رقيق الجسد• وجهه ينم عن حزن وصرامة في آن • شارباه أسودان دقيقان • أصابعه متناسقة • لفافته دائما بين ابهامه وسبابته • نظيف ، قميصه أبيض مخطط بالازرق • بنطاله متجعد قليلا لكنـه نظيف • كانت رنا ستبتسم • لكن الرصاص خطف من عينيها بعض الاطمئنان الذي أخذ يستحوذ عليها • قالت :

ــ هل تهدأ •• هل ستهدأ ؟

انتبهت الى الرجل يتأملهـا • في وجهـه نبل نقي • تبـدد خوفها • قال الرجل :

ــ ستهدأ •• أرجو ذلك ••

أخرج لفافة أخرى وأشعلها ••

ــ أنت تدخن بكثرة ••

ابتسم :

ــ صحيح •• لم أنتبه الى ذلك ••

ــ أنت قلق ••

ــ أنا قلق فعلا •• انني لا أفهـم كيف يستطيع انسان أن يشـعر

سلاحا على جاره ، على انسان كان يراه صباح مساء . يحييه . يسأله عن أولاده ، يزوره أحيانا . يعوده في حالات المرض ، يشتريان معا من نفس البقال وبائع الخضار والقصاب . أولاده يلعبون مع أولاده . ثم فجأة ، كل يشهر سلاحه في وجه الآخر . ماذا يحدث للانسان عندما تكون قطعة سلاح في يده ؟ لماذا ينهار ؟ لماذا يذهب عقله ولا يتحرك الا من خلال نزواته التي لا يتحكم بها ؟.

بدأت رنا تفهم صوت الرجل . هذه أول مرة يتحدث ، تسمع نبرات صوته . تحفظها . نبرات حزينة تتصل بعمق بين الحنجرة والفم . لم يسألها الى الآن من تكون . لم يقل لها من هو . ماذا تفعل ؟ كيف اذا طالت الحالة واشتد القتال ؟ هل ستبيت هنا ؟ وأفزعتها الفكرة : كيف تبيت خارج بيتها ، وهي لم تعتد أن تخرج من بيتها الا لماما ؟ قبل ساعات كانت مضطرة للذهاب ، لتعود أختها في المستشفى . أختها التي أنجبت ولدها الاول . سعادتها بولدها تشبه سعادة رنا يوم أنجبت طفلتها :

« يا الهي .. ماذا تفعل الطفلة الآن ..؟ هيلدا الصغيرة ستصرخ ماما. زوجي سيقلق . سيهتف الى المستشفى .. سيسأل أختها عنها . ستقول له لم تأت . سيجن » .

تذكرت رنا الهاتف ، هبت نحوه . قال الرجل :

ــ لا تعذبي نفسك .. الهواتف لا تعمل في هذه المنطقة . تعطلت منذ الجولة السابقة . هاتفي لم يرن منذ شهر . آسف . كان يمكن للهاتف أن يحل مشكلة . أن يطمئن أهلك .. لكن ما العمل الآن ؟

هي أيضا اطمأنت قليلا .. سيعتقد زوجها أنها في المستشفى عند أختها ..

ـ لكن (سألت الرجل) قد يهتفون الى المستشفى ويسألون عني ؟
ـ أعتقد أن الهاتف بمجمله معطل هنا ..

كأن الرصاص القريب قد هدأ . لكنه عن بعد ظل يزعق . تحرك الرجل في اتجاه أحد أبواب المر . فتحه . واختفى خلفه . القلق يعاود رنا . كم ستبقى مع رجل يبدو وحده في منزل مغلق ؟ لم تسأله من يكون . لم يسألها من تكون . لم يقل لها ان كان يعيش وحده . أو أن له أسرة في مكان آخر . في الجبل . خارج الوطن . لهجته تنم عن أنه ليس من العاصمة . لهجته جبلية .. لا . ربما من الجنوب . لعله من الجنوب ؟

اشتد الرصاص ، وشعرت للوهلة الاولى انها وحيدة . فزعت ، لكن رائحة القهوة وصلت الى أنفها . استعادت بعض الهدوء . انفجار قريب . البناء يهتز كأن الارض قد زلزلت . خرج الرجل وبيديه فنجانا قهوة . قدم لها أحدهما :
ـ خذي .. سوف تساعدك القهوة قليلا .

جلس على كرسيه الواطىء في محاذاتها . عبق الجو برائحة القهوة والدخان ، أحست رنا بألفة ما . قالت للرجل :
ـ أعطني لفافة ..
ضَحِك :
ـ أتدخنين ؟
ـ لا .. لا أدخن .. أريد أن أجرب ..
أخرج الرجل العلبة وقدم لها لفافة وأشعلها . وما أن سحبت قليلا من دخانها حتى سعلت بشدة . ضحك ، ضحكت . الرصاص شديد في الخارج . تراجعت الى الجدار وأسندت ظهرها اليه . انتبهت انها حافية .

شعرت بالخجل • أرادت أن تخفي قدميها داخل بنطالها • تشاغل الرجل عنها قليلا • استرقت النظر اليه • ملامحه صارمة • كأنه يعاني من قلق ما • لا شك أنه قلق مثلها • لم يسألها الى الآن من هي ؟ هل تسأله هي ؟ لا ، لا يجوز •• قد يكون ذئبا • قد يفعل بها شيئا • هل تسمح له ؟ لن تسمح له • ستهرب • ستخرج تحت الرصـــاص • لن يهمها أن تقتـــل • الأفضل لها أن تُقتل من أن تستسلم له • وهو هل يحاول ! كيف تهرب؟ الباب مغلق • تلقي بنفسها من النافذة ؟ أية نافذة ؟ لم تر البيت بعد • منذ استيقظت وهي في هـــذا الممر • لكن ، يجب أن تكون حـــذرة ، ستقاومه • لا • لن يفعل شيئا • في تعابير وجهه نبل • وربما براءة ، وربما حزن • هو أيضـــا مشغول الفكر • مشغول بشيء ما • ابتسامته تموت وراء كل طلقة • آه • ما زال الرصاص يلعلع • هل هو نبع هـــذا الفولاذ القاهر ؟ ألا يرتاح المتحـــاربون ؟ هل تذهب كل رصاصـــة الى القتل ؟ المتقاتلون هل هم كثر الى هذا الحد ؟ تذكرت الوقت • كم مرّ عليها من الوقت • ساعتان • ثلاث ساعات • أكثر • أكثر • كيف مرّ هذا الوقت والرصاص لم يتعب • لم يتـــوقف ؟ وهنـــاك من يتحـــدى الرصاص • الانفجارات تهز الارض والقلب معا • هل تموت ؟ هل يحدث لها شيء ؟ « يا رب •• هيلدا •• تلك الجميلة التي تملأ قلبي فرحا • هيلدا التي لا تنام الا في حضني ، وسادتها ساعدي ووجيب قلبي أغنيتها • زوجي • وزوجي الحبيب ماذا يفعل ؟ كيف سيتصرف ؟ أحبه ، أشتاق الى وجهه ، أشتاق اليه الآن • هذه اللحظة • ليته كان مكان هذا الرجل • لالقيت برأسي على صدره وغفوت • ليس هناك سوى صدره يشعرني بالاطمئنان • يغتال الخوف الذي يهز أعصابي من داخل •• ولكن أين أنت الآن ياميشيل •• اللحظة ماذا تفعل ؟ كيف تسأل عني »•وتساقط

الرصاص من جديد • ثم انفجار ، ارتج له الممر • وقعت بعض الكتب أرضا • وقف الرجل بعصبية وأصاخ السمع • ثم اقترب صوب الباب • بدا كأنه يفقد هدوءه خطوات كثيرة في الخارج • ولغط كان واضحا لرنا عبر طلقات الرصاص • صاحت • لا • كأنها كانت تريد الصياح ، لكنها همست :

ـ اقتربوا •• أليس كذلك ؟

لم يرد الرجل للوهلة الاولى • طغى عليها الخوف ، واتنبهت الى فنجان القهوة يرتجف بين يديها • وضعته فوق البلاط • ثم اخفت يديها وراء ظهرها • كانت ترتجف ، بل لشدة رهافة سمعها،تناهت اليها خطوات رجال كثيرون يسيرون بسرعة على درج البناء • أما هبوطا أو صعودا • وعندما استدار الرجل ، لمحت على وجهه قلقا بالغا وشديدا ، قالت :

ـ انهم هنا •• ماذا سيفعلون ؟

ارتسمت على فم الرجل شبه ابتسامة ، ثم خرج صوته الهادىء :

ـ لا تخافي •

بدأ صوته الهادىء يغيظها • هل يصطنع الهدوء ، لا •• هو أيضا خائف ، لو كان وحده لتصرف على نحو آخر • الا أنه أمام امرأة • امرأة يراها للمرة الاولى • والمفروض أن يحمي الرجل المرأة • أي رجل وأية امرأة تجمعها مثل هذه الظروف •

عاد الرجل وجلس فوق كرسيه ، ثم كأنه تذكر شيئا ، دخل الصالون ليعود بمذياع صغير ، حرك مؤشره على محطة الاذاعة • كأن شيئا لم يكن •• غناء • أسكته ، صرخت رنا :

ـ لا •• أرجوك •• اتركه •• ربما قالوا شيئا ؟•

قدم الرجل المذياع الى رنا • حملته وألصقت أذنها به • لاحظت أن

المـذياع يرتجف • أم هي التي ترتجف ؟ بل كانت كلهـا ترتجف • قال الرجل :

ــ أنت خائفة !

ــ خائفة •

ــ الحق معك ••

صمت ، وأشعل لفافة • لاحظت أنه يضغط على لفافته ، ويفركها بين سبابته وابهامه • أحست أن خوفه يقترب من خوفها ، وانهما تساويا معا في مواجهة الموت والحفاظ على الحياة • فاذا بها تميل الى الهدوء • وبعد فترة تماسكت • أصبحت متماسكة كإلجدار المستنذة اليه • بل زال عنها معظم الخوف الذي كان يركبها بكل ثقله • وهي هذه اللحظة سألت الرجل :

ــ أخائف أنت ؟

حاول أن يبتسم • كانت بشرته السمراء قد مالت الى الاصفرار • أم هو إنعكاس ضوء الممر على وجهه ؟

ــ خائف •• صحيح ••

وسكت ، ثم أردف :

ــ خائف عليك ••

هي أيضا :

ــ وأنا خائفة عليك ••

ابتسم مرتبكا • أخرج علبة الدخان وقدم لها لفافة • وهذه المرة لم تسعل عندما أشعلها لها ، بل أخذت تمج دخانها وتملأ فمها فيــه ، ثم تطلقه دفعة واحدة •

وكان الرصاص في الخارج ما يزال يركض وراء الناس •

- ٣ -

جاء الليل ، خشيت رنا ، رغم جـو الاطمئنان أن يحـدث شيء • ماذا يحدث ؟ أين تنام ؟ ماذا تفعل ؟ ولكن الرصاص الشرس كان يخطفها من أفكارها • انه هناك ، هـذا المخلوق الصغير يخرج من الفوهـات الفولاذية الى الرؤوس والصدور ، الى الناس كل الناس ، دون تفريق ، انه يلعب لعبته ، لا يرحم أحدا • لا يوفر أحدا • واذ تلتفت • لا تجد الرجل • هل غفت ؟ ربما غفت • أين هـو ؟ وأرادت أن تناديه • ماذا تناديه ؟ ما هو اسمه ؟ من هو ؟ من أي دين ؟ كيف لو كان من غـير دينها ؟ من غير طائفتها ؟ ماذا يفعل ؟ لماذا لم يخطر ببالها أن تعرف شيئا عنه ؟ الرصاص ينتشر هناك ، يكاد يثقب أذنيها ، وقفت حافية ، ما زالت حافيه ، بنطالها يغطي قدميها ، ويلامس بلاط الممر • أين الرجل ؟ تقدمت نحو باب مغلق ، وطرقت الباب • وسمعت خطواته • فتح الباب • قال:

ـ كنت متعبة ، ربما غفوت قليلا ••

ـ أظن فعلت ذلك •• هل أذاعوا جديدا في الراديو ؟

ـ لا ••

أرادت أن تدخل • طلب منها أن تتريث • أخرج من جارور صندلا وطلب منها أن تستخدمه ••

ضحكت :

ــ فقدت حذائي وأنا أركض ••

ــ لا بأس •• الحمد لله على سلامتك ••

ــ تطبخ ؟

ــ أجل •• ألست جائعة ؟

وانتبهت رنا الى أنها جائعة ••

ــ ماذا تطبخ ؟

ــ سباكيتي •

ــ هل تريد أن أساعدك ؟

ــ لا •• استريحي •• أكاد أنتهي ••

أجالت رنا نظرها في المطبخ ، معلبات مختلفة مرصوصة في رفوفه • أوعية زجاجية • صحون هنا وهناك • وعلى أحد الرفوف مجموعة من زجاجات مختلفة الاحجام لمشروبات روحية • براد متوسط الحجم • فرن متوسط الحجم • بصل أبيض معلق في الجدار • وثوم • وكيس من النايلون فيه ملوخية مجففة • قالت :

ــ كأنك لن تحتاج شيئا شهرا ؟

ــ أكثر من شهر •• أكثر •• من هذه الناحية اطمئني ••

وتوجست رنا خيفة •• هل ستبقى هنا شهرا ؟• بل هتفت :

ــ يا الهي •• هل سنبقى هنا شهرا ؟

التفت نحوها بهدوء :

ـ من قال لك أنك ستبقين شهرا •• لا •• ستتقف المعارك • ان لم يكن هذه الليلة •• فغدا •• اطمئني ••

سحب من خلف براده صينية من الالمنيوم ، وطلب منها أن تضعها على الكرسي الواطىء في الممر • فعلت • عادت تبحث عن الخبز والملح من تلقاء نفسها ، لكن المطبخ كان غريبا عنها • تذكرت مطبخها الواسع ، المنظم ، حيث كل شـيء في مكانه • بل هذه اللحظة كادت تجلب ملحـا من نفس المكان الذي في مطبخها • الرصاص ينهمر •• ارتدت نحو البـاب • قال الرجل :

ـ لا تخافي •• نوافذ المطبخ على الساحة الداخلية للبناء • نحن في الطابق الأرضي ، بل نحن ملجأ البنايه لكن أظن أن معظم سكان البناية في الجبال • بل أعتقد أن في بنايتنا مسلحين • وحدي المسالم • وأنت • هل لك رأي في ما يحدث ؟

فاجأها السـؤال • حقـا ، لماذا يحدث هـذا ؟ كانت تقرأ الصحف والمجلات • كانت تسمع من زوجهـا آراء متطرفة مختلفة • لكنها لم تكن تؤمن أن السلاح هو الحد الفاصل • وانه بالسلاح يمكن حل مشكلة بين أبناء الوطن الواحد ، قالت :

ـ مهما يكن الخلاف ، فأنا ضد أن يشهر ابن الوطن سلاحه في وجه ابن الوطن الآخر • ليست البطولة أن تتمترس خلف بناء وتطلق النار على المارة • وليست البطولة أن تستضعف أكثرية حي أقليته• البطولة أن تقف على الحدود • هناك أرضنا تنتهـك كل يوم • وبذلٍ لا تقبله الرجولـة الحقيقية • هؤلاء الرجال • كل هؤلاء الرجـال هناك ، هـل يستطيع العدو أن يفعل ما يفعل ؟

لم يجب الرجـل ، حين صمتت رنا • ظل مشـغولا بتحريك صـحن السباكيتي على النار • سألته :

ــ أين الملح ؟

أشـار الى زاوية في الرف • تناولت المملحة • قال لهـا : « الخبز في البراد » • فتحت البراد لتجد كيسا ملفوفا • أخرجته ، فيما ألقت نظرة على البراد المحتشد بأشياء مختلفة ، بعنب أبيض، وجبن ، وبيض، وزبدة ، وتفاح • كان الرجل قد بدأ يضع زيتونا في صحن صغير ، وبعض القطع من الجبن في صحن آخر • ونقلت رنا الصحنين الى داخل الممر • بعد قليل جاء الرجل بصحن السباكيتي • كانت رائحته شهية •• وجاء الرجل بعد قليل بزجاجة مـاء وبزجاجة نبيـذ • وصب لنفسـه كأسا • أخذت رنا تتسلى بتناول بضع حبات من الزيتون وهي تفكر : « لا شك أنه يعيش وحده • يتصرف على هذا الاساس • هل تسأله من هو ؟ لم يسألها هو الى الآن • » ظلت تتسلى بحبات الزيتون وبقطع من الجبن • كان يفعل مثلها • صـامتا مطرقا الى الارض • يرتشف من كأسه النبيذ • قال بعد قليل :

ــ لو تجربين كأسا من النبيذ ••

ــ لا أشرب ••

لم يكرر • ثم هو هذه المرة جلب صحنا أوسـع • وأخذ يضع لهـا السباكيتي الساخن• ثم في صحنه أيضا • وشرع يأكل• وهي تناولت بضع ملاعق من « الصلصة » فوق صحنها • لم يسألها شيئا • هي في مثل هذه الحالات كانت تسأل زوجها اذا أعجبه الطعام وكان زوجها دائما يقول : « عظيم •• رائع •• تسلم يداك » •

« طعم السباكيتي لذيذ » كانت ستقول له « لذيذ ومدهش » لكنها انتظرت أن يسألها ذلك • وكانت ستسأله « من أنت ؟ ما هو اسـمك ••

ماذا تفعل ؟ » ولكن فجأة انطفأ المصباح الكهربائي • وساد الظلام • بل ان الرصاص اقترب صوته أكثر • وتلعثمت رنا • ازداد صــوت الرصاص • تحرك الرجل وأشعل عود ثقاب • ترك الممر وعاد بعد لحظات وقد أشعل شمعة • ثم قال :

ــ أرجو أن يكون انقطاع التيار طارئا •• ماذا تفعل من دون كهرباء ؟

ــ سنتضايق •

شهية رنا توقفت ، وعافت نفسها الطعام • بل انها لم تأكل ربع صحنها • ذلك الجوع الذي كانت تشعر به قبل لحظات لم يعد موجودا • ودعاها الرجل ثانية الى الاستمرار في تناول الطعام • إســتحت • تظاهرت انهــا عاودت الاكل •

بدأت رنا تعتاد الاشياء من خلال نور الشمعة الضئيل ، قالت :

ــ هل قالوا شيئا في الراديو ؟

تذكر الرجل الراديو ، جلبه لها :

ــ افتحيه ••

فتحته • الغناء • هتفت :

ــ ألا يكفون عن الغناء • هنا الناس تموت • أم هذه الاذاعــة هي اذاعة أخرى ؟•

قال هادئا :

ــ انها اذاعتنا ••

أغلقت الراديو •• الرصاص يشتد •• انتبه الرجل الى أن رنا لم تعد تأكل ، وهي كذلك انتبهت الى أن رفيقها توقف عن الاكل • وقفت تحاول معاونته في رفع الطعام • لكنه كان أسرع • حمل الصينية • واندفع بهــا نحو المطبخ ••

- ٤ -

كادت الشمعة تذوب • وظل التيار الكهربائي منقطعا • قال الرجل :

ـ أنت ستنامين في مكانك •• وأنا قرب الباب ••

« تنام هنا ! كيف ؟• هــذه هي المرة الاولى التي تنام وحدها خــارج منزل أهلها أو زوجها » :

ـ هل تعتقد أن النوم هنا أكثر أمنا ؟

ـ طبعا ••

ـ اذا كان لا بد من النوم ، دعني اختار غرفة أنام فيها ••

ـ غرفة النوم والصالون على الشارع العام••أخشى عليك منهما•

صمتت ، كذلك الرجل • لحظات • ثم عاود الحديث مبتسما :

ـ أنت تخافين أن ننام معا في الممر •• أنت تخافينني •

أرادت أن تنفي • رفعت يدها مقاطعة ، لكنه ردد :

ـ لا•• لا تنفي ذلك•• الحق معك • أنا رجل غريب عنك • وها هي الاقدار ساقتك الى هنا • بيت غريب ، رجل غريب • ثم النوم في مكان لا ترتاحين فيه ، على أصــوات الرصاص والانفجارات والخوف • الحق معك • ولكن أرجو أن لا تقلقي • أنت مثل أخت لي • أنا سعيد بك رغم

هذا الوضع غـير الطبيعي ، لو لم تأت الي ، لكنت وحيدا الآن . أداري وضعي بالصمت . وجودك يجعلني أتكلم . أحس طعم الحياة . نحاول أن ننسى ما نحن فيه بالثرثرة .

أرادت أن تقول انه أبعد الناس عن الثرثرة ، وأنه معظم الوقت صامت ، لكنها تركته يسترسل . بل أخذت تستمع اليه بشغف . وان كانت تتظاهر بالتغيب والانشغال بشيء ما بعيد . هو أيضا لم يكن ينظر اليها الا لماما . كان يتحدث وهو مطرق :

ـ أكثر مكان أمنا في البيت ، هنا ، في هذا الممر . أنا سأدبّر حالي . سأنام في مكان آخر .

أرادت أن تقاطعه انها ليست خائفة منـه . لكنها ظلت صامتة تستمع اليه ، تابع :

ـ لن تنامي بملابسك . سأعطيك بيجاما . وآسف لانني لا أملك ملابس نسائية ، على كل حال ، تستطيعين قفل باب الصالون من عندك . سأنام أنا في الداخل .. هناك حمام آخر الى جانب غرفة النوم .

وقف الرجل ، فوقفت رنا معه . حمل بقـايا الشـمعة . وفتح باب الصالون . ثم ارتد الى الممر . كان رصاص غزير تلك اللحظة يمزق زجاج النوافذ وينشر رذاذه فوق البلاط ، وثلاث صـوفات متوزعـة في زوايا الصالون الصغير . قالت رنا :

ـ اسمع .. سننام معا هنا .. لست خائفة منك ، كما لست بحاجة الى بيجاما في هذه الظروف . المهم أن نبقى أنا وأنت على قيد الحياة ..

كان الرجل مرتبكا ، للوهلة الاولى بدا لرنا انه خائف ، يقاوم خوفه ،

ولعل ارتباكه نابع من خوفه عليها • عاد ، وجلس فوق كرسيه الواطيء • وأخرج علبة الدخان • قدم لها لفافة • اعتذرت • أشعل لفافته • لاحظت يده ترتجف • الرصاص يشاركهما ، كأنه الثرثار الوحيد الذي لا يكف عن الثرثرة • ولا يكف عن صوته الرتيب الممزق •

حاول الرجل مرة ثانية أن يدخل الصالون • نادت رنا :

ـ أرجوك •• لا تفعل •

وبصوت الرصاص المتزايد ، أحست رنا كأنّ مخلوقا ما يسترق السمع اليهما • وانها ليست وحدها مع هذا الرجل فعلا • وان هناك عشرات الرجال والنساء والاطفال محاصرون مثلهما • يحاول الرصاص أن يخترق الجدران والنوافذ والابواب ليقتل ، له لذة في القتل ، جائع ، والجثث خبزه وشرابه ولفائفه • انه مدمن رهيب • الرصاص ، بشكله المدبب الصغير ، الصغير ، الصغير ، الذي يفجر وينفجر داخل اللحم • ويمزق الرؤوس والصدور ، ويسرق حركة العين ، وحركة اليد ، وحركة القلب •

كلاهما صامت • كلاهما يتشاغل عن الآخر بخوفه وفزعه المختبيء تحت العظام والاعصاب • لكن الرصاص كأنه أدار ظهره الى الجهة الاخرى ، فبدت حبيباته الفولاذية للاسماع ، تتجه صوب الضفة الثانية ، الجدران الاخرى ، بيوت تلك الناحية البعيدة ، استيقظ الرجل من فوق خوفه ، ودخل الصالون مسرعا • وعاد بفرشتي اسفنج وبلحافين من الصوف ووسادة • ثم بيجاما نظيفة بيضاء • وسرعان ما لاحقه الرصاص متطايرا فوق رأسه ، ممزقا ما تبقى من زجاج ، فأحنى هامته ، وانحرف من الباب الى طرف الممر • حيث رنا شاخصة خائفة مرتجفة •

ألقى الرجل بالاغراض جانبا ، ثم جلس فوق كرسيه محاولا استعادة هدوئه • أخرج لفافة تبغ وأشعلها • قالت رنا :

ــ أعطني واحدة •

ابتسم ، وقدم لها العلبة • ثم أشعل لها اللفافة • كانت قد أمسكت بها بكل أصابعها • وراحت تمتصها ، تعبىء فمها بدخانها ثم تلفظه ، فيغطي وجهها لحظات كأنها تريد أن تخفي قلقها وخوفها وراء هذا السراب الابيض •

مرت لحظات ، والرصاص تارة يوشوشهما ، وتارة يصرخ ، قال الرجل :

ــ اسمعي يا ••

واستدرك :

ــ آه •• ما هو اسمك ؟

ــ اسمي رنا •• وأنت ؟

واغتبطت رنا :

ــ محمود •• محمود

تطلعت اليه ، فاذا به يتأملها • بل لعله هذه اللحظة اتنبه الى الشيء الذي يتدلى من عنقها وتداعبه بأصابعها • ذلك الصليب الذهبي الصغير الصغير •• اللامع • وابتسم • هي أيضا ابتسمت •• حماها • أدخلها بيته • خاف عليها ويخاف عليها • تحقد عليه ؟• لماذا ؟• ما فعل لها الا الخير • بل هو هذه اللحظات حريص عليها أكثر من حرصه على نفسه :

ــ قلت لي محمود !

ــ محمود شرف من الجنوب ••

ـ وأنا رنا الحاج ، أقيم على الساحل ، الرملة البيضاء • وان كنت في الاصل من المتن ••

ابتسما •• وكان سيتكلم • وكانت ستمد يدها لتريه المحبس الذهبي وهو يلتف على بنصر يدها اليمنى • الا أن انفجارا قويا هز البناء • فانطفأت بقايا الشمعة وساد الظلام شديدا ورهيبا • لكن شيئا واحدا لم يتوقف عن الزعيق والصراخ : الرصاص ••

- ٥ -

ـ كم الساعة الآن ؟

سألت رنا ••

أشعل الرجل شمعة أخرى :

ـ الساعة التاسعة ••

ـ كيف أنام ؟•

قالت رنا ، وتابعت :

ـ هل أستطيع النوم • وهذه الانفجارات ، وهذا الرصاص ؟ هل تنام أنتَ ؟•

ـ سأظل يقظان حتى أتعب • ولكن دعيني أمد لك هذه الفرشة •

وقفت وتناولت منه الفرشة وألقتها فوق البطانية • ثم رفعت الوسادة من تحت الفرشة ووضعتها فوقها• وتلفتت تبحث عن مكان مناسب للفرشة الاخرى • قال محمود :

ـ لا تزعجي نفسك في البحث عن مكان لي ••

ثم تلفّت هو الآخر • وتابع :

ـ ربما قرب الباب ؟

قالت :

ــ لا •• قرب الباب ليس آمنا ••

قال :

ــ اذن هنا ، بين باب المطبخ والحمام •

ــ لا •• ليس مناسبا •• لا •• هنا الى جانبي••على الطرف الاخر• أم أنك خائف مني ؟

ضحك • ضحكت • ثم مدّت الفرشة الى الطرف الآخر • وكان بينهما فراغ بحجم الكرسي الواطيء •

أعطاها الرجل البيجاما • ضحكت كرة أخرى • وألقت بها على المشجب في الزاوية • استلقت رنا على فراشها ، قالت :

ــ أليس لديك شمعة أخرى ؟

قال :

ــ لدي شمعتان ••

وأشعل واحدة • لكن رنا أطفأتها بعد قليل قائلة :

ــ سنقتصد •

مرت لحظات • ثم بدأت الاشياء تتوضح أمام عيني رنا • رأت محمود يتلمس طريقه صوب المطبخ المفتوح بابه قليلا • نادته :

ــ الى أين ؟

وردّ :

ــ سأجلب علبة دخان جديدة ••

ــ اترك باب المطبخ مفتوحا ••

وعاد محمود بعلبة الدخان ••

ـ هل تدخنين ؟

ـ لا •• أشكرك ••

أشعل لفافته • وظلت رنا تراقب شعلتها ودخانها وهي صامتة • كان صوت الرصاص يغلب كل الاصوات • سافر الصمت • لكن الصمت في داخلها كان يتحرك ، يتحدث ، تتمنى أن يأتي الصباح وتخرج • اشتاقت لطفلتها • اشتاقت لزوجها • اشتاقت لبيتها الفسيح بغرفه الواسعة • وبنوافذه المشرّعة على البحر الأزرق • وأحست بحاجتها الى الصلاة • هتفت في أعماقها : « يا رب احمني • انقذني • افتح لي أبواب الرحمة واطلقني • يا سيد احمني بيدك الحنون• احمني من كل سوء• وأعدني سالمة الى بيتي » •

وكادت تتمنى هذه الامنيات للرجل الذي بجانبها • وتساءلت وهو يضع يده تحت رأسه « هل يتمنى هو مثل ما أتمنى ؟ هل له زوجة ؟ هل له ولد ؟ أم أنه فعلا رجل وحيد ، يعيش وحده ؟ هل يلجأ الى ربه ويسأله أن يحميه ؟ بماذا يفكر الآن ؟ هل أعني له شيئا ؟ اذا جاء الخطر الى هذا البيت كيف يتصرف •• ماذا يفعل ؟ هل يتخلى عني ؟ هل ينجو بنفسه فقط ؟ » •

وكان الرصاص في الخارج يؤكد لرنا أنه يحاصرهما معا • وانه خطر عليهما معا ، واذا أتيحت له الفرصة سيقضي عليهما معا • فالرصاص لا يعرف اسمها رنا الحاج ولا اسمه محمود شرف ، جسدان نديان ،، مليئان بالدم واللحم • وصالحان حقا لان يخرقهما الفولاذ • يشطر لحمهما ، ويستحم بدمائهما معا • أليست تلك هي غاية الرصاص منذ ولد في عقل مخترعه ؟ : القتل •• القتل •• القتل •• تلك مهمته ، وهو جاء في وقت ، حيث لم يعد للسماء مكان على الأرض •

وتلفتت رنا صوب محمود ، فبدا لها كأنه أغفى • انه صامت ، ساكن سكونها • أم أنه يتنفس تنفسها الخائف ؟ حاولت أن تسترق السمع • لكن الرصاص منعها ، وغلب صوته في أذنيها كل شيء • وكادت تمدّ يدها تتلمس صدر الرجل• بل كادت تصيح باسمه ، وخافت أن تفزعه • وأخذت تتشاغل بنفسها • صلّت للرب من جديد أن يوقف الرصاص ، أن يشل الاصابع التي تشد عليه أن يوقظ ضميرا مقابل كل رصاصة • أن يشع في صدور المتقاتلين شعاع السلام ، عسى تشرق الشمس في الصباح وقد هدأ كل شيء ، وذهب كل مقاتل ليستريح •• ألا يستريح المتقاتلون ؟ أمنيتها تلك اللحظات أن تتاح لها فرصة وحيدة : الذهاب الى هيلدا الصغيرة الجميلة ، بشعرها الاحمر القصير ، وبعينيها الزيتونيتين وبوجهها المدور • الى ميشيل زوجها • ثم ، لتمت هناك • لتسقط قنبلة وتشعل البيت •• تموت هنا مع هذا الرجل الغريب !! الصامت والغامض ! يا ويلها من ميتة شنيعة • تذهب مجهولة • لا يعرف أحد مكانها ••

هذا الرجل ، أيضا ، من غير شك ، يفكر بالموت• كيف يفكر بالموت ؟ من يحزن عليه ؟ من يتألم لاجله ؟ من يهتم بخبر موته ؟ كيف كان يتصرف لو لم تأت اليه كالمصيبة ؟ هل كان يستطيع الفرار بنفسه والنجاة ؟ اربكته• لو كانت في مكانه لارتبكت اذا دخل عليها غريب أصبحت مسؤولة عن حياته كما هو الآن مسؤول عن حياتها •• أم انه قدرها كما هي قدره في هذه اللحظات الحاسمة ؟

اقترب رصاص غزير ، كأن البنادق فوق رأسها • تلفتت فزعة • ما زال الرجل الى جانبها ساكتا سكوت جثة • واشتد فزعها اذ شعرت أن شيئا يتساقط في الطرف الآخر من الجدار • ومرة ثانية كادت تصرخ :

« محمود » ، لكنها تماسكت • بل وحسدته لقدرته على النوم وسط هذا الصراخ والجحيم • هي أيضا بدأت تتعب • تقــاوم النعاس وتشد على نفسها أن تظل متيقظة • حتى الرصاص بدا لها الآن أليفا • اعتادت عليــه كأنها تستمع الى زعيقه منــذ آلاف السنين • أغمضت أجفانهــا • هيلدا تناديهــا « ماما •• ماما » هيلدا تحترق « ماما •• ماما » استيقظت على صوتها وهي تصرخ • هل صرخت حقا ؟ لو أنها صرخت لاستيقظ الرجل الآخر • لو أنها صرخت لافزعته • لا • كانت تصرخ في الحلم والرصاص ما يزال • ألا ينام الرصاص ؟• تعبتْ •• تعبتْ ، أغفت • استيقظت من جديد • أغفت • نبتت لها أجنحة بيضاء • طارت • لاحقها الرصاص ، لم تصبها رصاصة • ظلت تطير • دخلت غابة بعيدة • فيها أسود ونمور وفيلة وضباع • وكانت قد تعبت • توقفت عن الطيران تحت ظل شجرة جذعها كبير ، عمرها مئة عام • لم يقترب وحش منها • وكانت عطشانة ، فغاب فيل وعاد يصب من خرطومه في راحتيها ماء • وكانت جائعة • جاءها أسد الغابة بقطعة لحم مشوية • وتعبت • فجلبت لها الوحوش فرشة من أغصان وتركتها تنام بهدوء • ونامت كما لم تنم في كل حياتها ، لكن هيلدا نادتها من جديد • فتحت أجفانها • لم تجد وحشا من تلك الوحوش حولهــا ، كانت الغابة آمنة مطمئنة • لا صراخ فيها ولا رصاص • لكن صوت هيلدا يناديها ، طارت الى الضفة الاخرى • فاذا بالحريق يلتهم كل شيء • وهيلدا محاطة بالنار ، ترفع يديها الصغيرتين منادية : « ماما •• ماما » وألقت رنا نفسها فوق النار • هيلدا اختفت • بدأت أجنحة رنا تحترق • لكنها ظلت تصرخ على ابنتها • وكبرت النار وغمرت رنا • أخذ قلبها يشتعل تحت وجيبه السريع • صرخت رنا • صرخت • صرخت • ظلت تصرخ ولا أحد يسمعها • ظلت تنادي ابنتها « هيلدا •• هيلدا » وتمنت أن تموت • ان

تقضي النار عليها • لكن النار كانت تلتهمها قطعة وراء قطعة ولا تموت• أصابعهـا احترقت • أطراف من جسدها •• احترقت • عين من عينيهـا سقطت • شعرها كله احترق • تذكرت شيئا واحدا • تذكرت • فرفعت يدها الاخرى وتمسكت به • ذلك الشيء الصغير • اللامع • المتدلي من عنقها صليبا يلمع • فاذا بها تستيقظ للتو •

ظلت لحظات طويلة ترتجف • بل حـاولت أن تمسح من ذهنها ذلك الحلم الفاجع ، بأن تنصت للرصاص • الا أن ظلال الحلم كانت أقـوى • نسيت أنها في بيت غريب ، وان رجلا غريبا ينام بالقرب منها • وان الناس تموت خارج هذا المكان • الرصاص يخترق كل شيء • ويصطدم بأجساد الناس • بل تلك اللحظة بالذات ، رأت سائق المرسيدس يستنجد بها ولم تنجده • يرجوها أن تساعده ولم تساعده « يا الهي •• سامحني يا رب •• اغفر لي •• » •

وبدأت رنا تستعيد نفسها ، وغادر الهلع صدرها • فتذكرت أنها في ممر بيت ما • في مكان ما من هـذا الشارع المشتعل • وتذكرت أن رجلا غريبا لا تعرف عنه شيئا ينام الى الطرف الآخـر • وان مجهولا لا تدري كنهه ينتظرها • واشتاقت الى انسان تحدثه • تقول له شيئا ما • الرصاص لم يهدأ • انه يصفر هنا وهناك ، يصطدم بالحجارة والجدران والاحياء والاموات • ذلك الرصاص المغتبط بوجود ضحية • المختبيء متفجرا بين لحم وعظم ، تحت جفن العين ، وفوق جدار القلب• الرصاص الذي يذهب بعيدا ، هو الذي يجد ضحاياه • أما هذا الذي يصطدم بالجدران والنوافذ وأثاث المنازل • فهو هذا الوحش المستكلب الباحث بقسوة عن انسان يرميه • لا فرق ان كان رجلا أم امرأة • طفلا أم طفلة • لا فرق •• انه

فقط يريد قلبا ينبض • وحركة في وجه ليجد تسليته الكبرى • وينتحر في دم ضحيته المسكينة •• أما هو أيضا يموت مع الموت ؟

وتلفتت رنا صوب محمود • دهشت • لم يكن موجودا • ومدت يدها متسللة لتلامس الفراش • لم تجده • خافت • إقشعر بدنها • هل هرب ؟ هل تركها وحدها ؟

وانتبهت الى باب المطبخ المفتوح • تركت فراشها حذرة واقتربت منه • كان محمود هناك • نائما في الزاوية • وكان مستندا بنصف ظهره الى جدار البراد الجانبي ، ممدداً قدميه صوب المدخل • تأملته لحظات • كان مستغرقا • عادت الى فراشها • وتمسكت باليقظة • صارت تنصت جيدا الى الرصاص • بل انتبهت هذه اللحظات الى أن لكل رصاصة صوتا • ان لكل صاروخ صوتا • ان لكل انفجار صوتا • وبين صراخ الفزع في صدرها وصراخ الرصاص في الخارج قضت ليلتها •

- ٦ -

لم ينم الرصاص ، وهو ما زال ، مع دخول الضوء الى الممر المعتم يثبت صحوه المتفجر ، ويتحرك صوب الامكنة ، أرغمت رنا نفسها على البقاء ساكنة ، لكن الروع هزهـا من جديد • وعندما فتحت عينيها • كان محمود يجلس قربها • لكنه ملتفت صوب الباب كأنه يحدق الى مكان معين • قالت :

ـ صباح الخير ••

التفت نحوها وابتسم :

ـ صباح الخير !

كان كئيبا • تأملته وهي تخطف النظرات بين وجهه المتعب وبين أصابعه المتوترة على لفافته :

ـ قضيت ليلة متعبة ؟
ـ وأنت أيضا •• أليس كذلك ؟
ـ ليلة رهيبة •• لماذا تركت مكانك وذهبت الى المطبخ ؟
ـ عرفتِ ••

ــ عرفت ، استيقظت فلم أجدك . ثم رأيتك تنام في المطبخ . لــم تكن مرتاحا ..

ــ كذلك أنتِ .. رأيت أن أذهب الى هناك .. حتى لا تشعري بضيق ..

ــ ولكن .. على ألا تعرض نفسك للخطر .

ابتسم :

ــ ستشربين معي القهوة ..

ــ يسعدني ذلك ..

والرصاص ينصت اليهما . يعكر الهدوء بصرخاته الوحشية، يتبارى والمدافع . وفيما توجــه الرجــل الى المطبخ ، توجهت رنا الى الحمــام تغتسل . تأملت وجهها في المرآة . كأن سنه مرت ولم تنم . البارحــة مثل هذا الوقت كانت جميلة . وكانت تصنع القهوة لزوجها البارحــة « ياصباح الخير يا حلوة . كلما نظرت الى وجهك أحسست أن الشباب يعود الى عروقي » ويحبها زوجهــا . كل صباح يتضــاحك « يا ابنتي أحبك » دائما يداعبها بمنادانه لها « يا ابنتي » مرة يقول « لان وجهك طفولي » ومرة يقول « لا تزعلي .. ولو أنا أكبر بخمس عشرة سنة » وهي في الثانية والعشرين . ترى فيه الرجولة . ويوم كانت تعمل معه في الشركة . كانت تحب رجولته . وادارته العمل ، كانت تحبه بصمت، وتتمنى أن لا تفارق تلك الشركة لتراه كل يوم . الى أن فاجأها ذات مرة « لمــاذا لا تتزوجين يا رنا .. » وتقول لــه : « لم يأت النصيب » ويتابع مازحا : « ما رأيك لو كنت النصيب أنا » وتضحك : « أنت ؟ غير معقول » ويقترب منها : « لماذا غير معقول ؟ » وتتراجع « أنا موظفة

معك هنـا . وأنت مديري » وظل يقترب منهـا : « لانني خبرتك .. عرفتك .. فكري جيدا .. وأنا أريدك زوجة .. وبانتظار جوابك . لن أصبر أكثر من أيام » .

حدث بعد ذلك كل شيء بسرعة . وها هي الآن أم طفلته الجميلة هيلدا . ماذا يخبىء لها المستقبل ؟ تغتسل الآن في بيت غريب . والموت ينتظر على الباب . وقد يقتحمه ؟ ارتجفت . فأسـرعت تشغل نفسها بتمشيط شعرها وتمسح بقايا الكحل تحت عينيها . تحـاول استعادة نشاطها ، تخرج لتجـد صينية القهوة تنتظرها على الكرسي الواطىء . والرجل يقف منصتا وراء الباب . همست :

ـ هل من جديد ؟

وضع سبابته على فمه :

ـ هس ..

وخافت .. اقتربت .. فاستمعت الى لغط مـا .. اشـتد وجيب قلبها ، وألصقت أذنها بطرف البـاب المتبقي خلف المكتبـة . رجـال يتحدثون بصوت عال . فهمت بعض الكلمات « أنت ستبقى مع مدفعك الرشاش . أنت تصعد الى المنور في الطابق الثالث وتراقب . نحن سنحتل السطح من جديد . ربما نفذت الذخيرة من الرجال ، أو ربما قتلوا . كن حذرا . يجب أن لا نسمح لمسلح باجتياز الشارع . أطلق الرصاص دون توقف .. ليعرفوا أننا هنا . لقـد تم تنظيم الخط بيننا وبين الرفـاق . ستصلك الذخيرة باستمرار .. سـنبقى حتى يأتي غيرنا ويحتلوا أمكنتنا ونذهب لنرتاح . انتبهوا الى أوامري : لن يفارق أحد مكانه . الا عندما يتلقى أمرا جديدا .. مفهوم » . وهمهم الرجال متثاقلين « مفهـوم » .

ثم سمعت رنا خطوات سريعة . وهب الرصاص من حولها . بل خشيت أن يكون محمود هو مطلق الرصاص ، التفتت اليـه مذعورة . وسـرعان ما شدها من يدها وارتدا الى آخر الممر . كان كلاهما يرتجفان :

ــ أسمعت ؟

ــ سمعت !

ــ اننا في قلب النار ..

ــ أجل .. في قلب النار ..

ــ هل عرفت أحـدا من لهجتـه ؟ يجب أن نترك هـذا المكان .. أنا وأنت ..

ــ لا .. ولن نترك البيت .. سـمعت ما قالوا .. انهـم يطلقون الرصاص .. ولو في الفراغ .. ليثبتوا انهم هنا .. المكان الاكثر أمنا داخل البيت الى أن يفرجها الله ..

واشتد الرصاص ، وحاول الرجل استعادة هدوئه :

ــ القهوة بردت ..

أسرعت رنا وأمسكت بالركوة :

ــ لا .. لا زالت ساخنة ..

صبت القهوة في الفنجانين . وأعطت الرجـل أحدهما .. ثم أخذت ترتشف فنجانها بقلق ، قدم لها الرجل لفافة ، اعتذرت . أخذ يمج لفافته وهو يضغط عليها بين سبابته وابهامـه . تذكرت رنا الراديو . حركته . جاء صوته مخنوقا . قال الرجل :

ــ نسيت أن أجلب له بطاريات . لم أحسب لذلك حسابا ..

ــ انه صلتنا الوحيدة بالخارج .. أرجو أن يصمد معنا .

وجاء الصوت المخنوق باكيا « جميع الطرق في العاصمة ومداخلها غير آمنة » ••

ــ انها مشتعلة في كل مكان ••

ــ انه الجنون •• انهم ينتحرون ••

وأشعل الرجل لفافة أخرى ، قالت :

ــ أعطني واحدة ••

قدم لها العلبة •• وأشعل لها لفافة •• استدركت :

ــ أنت تدخن بكثرة ••

ــ لم أتنبه الى ذلك !

ــ هل عندك علب سجائر كافية ؟

ــ لدي بضع علب أخرى ••

حاولت أن تعتذر :

ــ آه •• كان يجب أن لا أدخن • أنا أتسلى •• أنفخ •• أستهلك من احتياطك !

ضحك :

ــ لا بأس •• اذا انتهت علب الدخان لن نموت من دونها ••

ــ لكنها تواسيك•• انك معتاد عليها •• ومزعج أن يفقد الانسان الاشياء التي اعتاد عليها •

تأملها الرجل طويلا ، ربما للمرة الاولى تشعر أنه يتأملها :

ــ صحيح •• لكن الظروف تتحكم •• ونحن الآن في ظرف قاسٍ •• مجهول •• لا نعلم •• لا أنت ولا أنا ماذا سيحدث •

ــ يجب أن يواجه الانسان مصيره •

ـ هذا أكيد .. ولكن ، كان يجب أن لا تخرجي من بيتك .
ـ لم أعتقد أن الحرب ستندلع من جـديد . كانوا يطمئنوننا . يقولون أنها لن تتكرر ، وانها جريمة لو تكررت .. أما كنت تستمع الى مثل هذا الكلام يوميا ؟ من الراديو . من التلفزيون . في الصحف ؟
ـ صحيح .. لكن النار ظلت تحت الرمـاد . لم يعالجـوا المأساة من جذورها .
ـ أيـة مأسـاة .. هناك أناس يقـاتلون دون أن يعرفوا لماذا ؟ وآخرون تابعون لا أكثر .. تصوّر أن محركي هذه الوحشية يلتقون كل يوم . يتداولون . يتناقشون . ولا يضعون أيديهم مباشرة على الداء ..
ـ تعجبني آراؤك ..
ـ أنا أقرأ .. التهم الصحف كل يوم .. صحف كافة الاتجاهات. كلهم حريصون على البلد . ولكنهم ، مع ذلك ، يوجهون الرصاص الى صدور بعضهم بعضا ..
ـ هناك جهات أجنبية لها مصلحة في ذلك . العـدو نفسه يريد نسف هذه الصيغة التي نحياها ، لانه في الاساس يريد أن يثبت للعالم أن تلك الصيغة التي نحياها . ونطالب بمثلهـا هنـاك . خاطئـة من الاساس .. بدليل هذا الاقتتال الشرس الذي لم تشهد مثله الشعوب الاخرى قط .

وأراد الرجـل أن يتابع . كانت رنـا تصغي بكل حواسها الا أن انفجارات عدة سورتهما بالخوف الفاجع من جديد . كانت ستقول له أن يتابع حديثه .. الا أن انفجارا قريبا هز البناء والمنزل نفسه .. كأن الارض زلزلت من تحتهما . صرخت ، بل لعله هو أيضا صـاح ، وغمر

البيت والممر دخان كثيف • هبّ الرجل نحو باب الصالون ودخل • واتنبه الى ستارة النافذة تحترق • أسرع ، وانتزعها من مكانها ، ثم ركض بها الى المطبخ ، وفتح حنفية الماء عليها • انطفأت ، الا أن رائحة الحريق أشعرتهما معا كأن النهاية باتت قريبة منهما •

ابتعدت أصوات الانفجارات قليلا• لكن الرصاص ظل بجوارهما • قال الرجل :

ـ حقا •• يجب أن نفكر بطريقة •• نترك فيها هذا المكان ••

ـ ولكن كيف ؟

ـ لا أدري •• اننا في قلب المعركة •• هؤلاء الرجال الذين استمعنا الى لغطهم جعلوا البناء برمته هدفا • المفيد انهم تحدثوا عن طرقات خلفية يتسللون منها •• وراء هذا البناء ثمة مدخل ضيق يمكن سلوكه • المهم أن نستطيع معا القفز فوق الجدار العالي الذي يسوّر ساحة المبنى •

ـ واذا رأونا ونحن نقفز •• سيعتقدون أننا أحد الاطراف • سيطلقون الرصاص علينا • أم أنهم سيروننا أعزلين ويتركوننا في حال سبيلنا ؟•

ـ في مثل هذه الحرب من يفكر بالعزّل • في الجولة الماضية معظم الذين قتلوا هم أمثالنا من الابرياء الذين لا يؤمنون بالعنف في حل مشاكلهم • نحن الذين أحببنا هذا البلد الجميل ، ونتمنى أن نعيش فيه الى الابد بسلام • من كان يفكر قبل عام على الاقل : أن بلدا مثل هذا سيحترق بيد أبنائه ؟

توقف الرجل كأنه يستجمع أفكاره • ظل صامتا • أشعل لفافة جديدة

كان الراديو الصغير يبث موسيقاه • ثم صدر عنـه نداء يرجـو المواطنين التبرع بالدم • قال الرجل ساخراً •

ـ تصوري •• يمكن أن ينقذ متبرع بالدم قاتل أخيه !

ـ انهم انسانيون وراء مكاتبهم ووحوش وراء متاريسهم •

وكانت رنا قد تعبت • فجلست فوق الفراش ، واسندت ظهرها الى الجدار • جلس الرجل فوق كرسيه الواطىء •• وأخذ يحدق الى الباب •• قالت رنا :

ـ أشعر بوطأة الذنب • لقد دخلت عليك فجأة لاحملك ثقلا فوق ما انت فيه • اتمنىلو تفكر لحظة بأنني لست موجـودة • وتتصرف كأنك وحدك •

رمقها الرجل بنظرة عتاب ثم قال :

ـ مبدئيا • لن أفـارق بيتي ، جئت أم لا • في المـرة الماضية لـم أترك المنزل •

ـ ظللت هنا الى أن توقفوا !

ـ نعم • كان المـوت يلاحقني من كل مكان ، عبر معـدتي لانني جعت ، وعبر ظمأي لانني عطشت ، وعبر نوافذ المنزل لان الرصاص كان يدخل عليّ من كل طرف • ومع ذلك ظللت حيا • هذه المرة لست خائفا رغم اعتقادي مثلك ان جولة أخرى لن تحـدث • لكنني احتطت قليلا • لدي ماء • لدي سجائر • لدي مؤونة غذائيـة • بعـد كل ذلك • أترك مصيري للقدر •

ـ ومصيري أيضا••ومصير الاغذية في برادك التي لا بد أن أكثرها قد فسد ••

ـــ لا يهم •• لدينا معلبات • لا تخافي •

صمت وهو يتأمل رنا ، ثم أردف :

ـــ كنت أتمنى لو لم تكوني معي الآن ، أمام هذا المصير المجهول • لا لعجزي عن حمل مسؤوليتك ، على العكس ، انما لانك تركت منزلك • أنت بين أهلك في مكان بعيد عن الخطر ، غير أن تكوني مع غريب في قلب المعركة •

الرصاص يتدخل ويفصل بينهما • ينصرف كل منهما الى رعبه وتوجسه ، يحتد قرب الباب ، والنوافذ ، والشارع ، أصوات متماسكة ، ورهيبة ، تتناوب الاصطدام في الجدران والزجاج المتبقي واسفلت الشوارع والارصفة وصدور من تظهر صدورهم والرجال الذين يتقاتلون •

ـــ اسمعي ـــ قال الرجل ـــ الذين في أيديهم بنادقهم يعرفون ماذا يفعلون •• انهم خلف المتاريس ، وخلف زوايا المنازل ، وخلف الأبنية والسطوح ، أما نحن ، نحن الذين نسمع فقط ، وجيب قلوبنا والرصاص المتطاير فوق رؤوسنا لا ذنب لنا • لو كانوا رجالا لخرجوا جميعهم الى البرية ليثبتوا رجولتهم هناك •

ـــ في القديم ، كانت الحرب على الحصان ، بين السيوف والرماح !

ـــ صحيح • كانت الشجاعة تفصل • وكان الرجال الشجعان يضعون حدا • وكان لا يموت الا الذي يقاتل •• الوضع الآن متناقض « الذي لا يقاتل هو الذي يموت » •

- ٧ -

حاولت رنا أن تلملم بعض الفوضى في الممر. هي دائما ، كل صباح ، تعيد ترتيب بيتها . ها هي الآن بعيدة عن بيتها . عن ابنتها ، عن زوجها ، عن حياتها الهادئة المطمئنة التي ترجو لو تعود اليها بأسرع وقت . رفعت الفراش ووضعته قرب المكتبة . وحانت منها التفاتة نحو الصالون الصغير . هالها ما آلت اليه حالته. الزجاج المتناثر ، أثر حريق في النافذة. الدخان في الشارع .. فارتدت الى داخل الممر خائفة مذعورة . كادت تقول شيئا . ولكنها انتبهت الى الرجل ، وكأنه ينتظر منها كلمة . ماذا تقول ؟ سألت عن المكنسة . ضحك :

ــ لماذا ؟

ــ سأنظف الممر .

دخل المطبخ ، وعاد بالمكنسة ، أخذت تنظف الارض ، بقايا غبار ، رماد سجائر .. وعاد البلاط نظيفا .

ــ أنت سيدة بيت ..

ابتسمت :

ــ أنا متزوجة ..

ـ أعرف •• واضح من الخاتم الذي في يدك •

ـ ولي ابنة •

ـ كبيرة ؟

ـ سنتان ••

ـ حدثيني عنها ••

اغرورقت عينـا رنا بالدموع • ها هي بعيـدة عن هيلدا • من يعتني بها ؟ زوجها • ماذا يفعل زوجها الآن ؟ من يسأل عنها • سيجن •

ـ انها تشبهني ••

ـ ما أجملها !

كأنه يطري جمالها :

ـ هي أجمل مني ••

ـ هذا منتهى التواضع •• أنت سيدة جميلة •

وكانت ستشكره ، هل يغازلها ؟

ـ أنت سيدة جميلة •• أرجو أن تأخذي كلامي جداً • كل ما فيك جميل وأنيق ومتناسق •• أظن ان زوجك سعيد بك •

وغضت الطرف • أحست بتـورد وجنتيها • ربما النـار الداخليـة اشتعلت • ولعلها هذه اللحظة كادت تنفر منه « هل يمهد الطريق ؟ » وخطر في بالهـا أن تستكشف نواياه من عينيه • عـادت الصرامة الى وجهها • وتأملته • عيناها في عينيه مباشرة • واستعادت هدوءها • في عينيه تلك البراءة التي لم تجدها في عيني رجل يتأملها من قبل •• كان أقرب المقربين الى زوجها ، الى معارفها من الرجال ، ترى في عيونهم اشتهاءها • وكانت تدرك بحدس الانثى ، انها أمام رجال وحوش ، لو أتيح لواحـد منهم

الاستفراد بها ، لتحول الى ذئب جائع ينهش لحمها • في عيني هذا الرجل الغريب لم تر معنى من تلك المعاني ، كان نبيلا وهادئا ومتماسكا • يتحدث عنها كأنه يتحدث عن لوحة فنية جميلة « أنت سيدة جميلة » عبارة لفظها دون مداورة أو خداع • خرجت من قلبه ومن حنجرته وشفتيه في آن ، دون تلكؤ أو تردد « أنت سيدة جميلة » بصوت عميق، رجولي ، لم تعرف له مثيلا من قبل ••

سألته مباشرة :

ـ تعيش وحدك ؟

ـ وحدي ••

ـ كيف •• ألست متزوجا ؟

ـ لست متزوجا ••

ـ قدرت ذلك ••

ـ الا انني شبه خاطب • هناك فتاة تنتظرني ••

ـ جميلة ؟

ابتسم ، ثم أردف :

ـ تشبهك ••

ضحكت ، وتابع :

ـ والله •• كأنها أختك ، وأنا مندهش اذ اكتشفت فيك بعض عاداتها • يدك المتوترة التي تداعب الصليب في صدرك ، تدخينك لفافتك الاولى • طريقة حديثك ، شجاعتك • أنت سيدة شجاعة •

ـ انك تطريني • ويسعدني أن أكون شبيهة خطيبتك •

ـ لا أبالغ •• أقول لك الحقيقة ••

ـ هي مسلمة •• مثلك ؟

ـ لا فرق •• بالنسبة لي لا فرق •• المهم الحب •• ما كنت سأتراجع لو كانت مثلك • أو من طائفة أخرى • الحب موجود • وهو المهم • أما الدين فهو لله • كل يعبد ربه على طريقته •

صمت الرجل • وكانت رنا هذه اللحظات تفكر • قالت :

ـ تكون مشغولة عليك هذه اللحظات • هل بيتها بعيد ؟

ـ انها في منطقة آمنة ••

ـ لكنها مشغولة عليك •

ـ لا أدري كيف أطمئنها • مرارا قالت لي اترك هذا البيت وانتقل الى مكان آخر أكثر أمنا • فعلا حاولت • لكن ايجارات المناطق الاخرى مرتفعة • وتفوق امكانياتي • أنا معلم مدرسة ، أدرس اللغة العربية وآدابها في الصفوف الثانوية • هذه المدارس تقع جميعها في هذه المنطقة • مرتبي لا يتجاوز الالف ليرة •

ـ لكن بيتك هذا صغير •

ـ صحيح • وكنا سنبقى فيه فترة ثم ننتقل • في بداية الزواج يكفينا • فيما بعد نتعاون معا في الانتقال الى منزل آخر • هي تعمل سكرتيرة في شركة •

وكادت رنا تصرخ « وأنا كنت أعمل سكرتيرة في شركة » لكنها ظلت تنصت ، في نفس الوقت تعجبت لهذا التشابه الذي أشار اليه محمود من قبل • وفرحت لانه بدأ يفتح لها قلبه ويحدثها عن مشاكله • الرصاص والانفجارات تقتحم أصواتها عزلة الممر ، بعض الرصاص هذه

المرة من باب الصالون • صرخت فزعــة اذ انتبهت الى الثقوب الثلاثة التي حدثت في الجدار • وتناثرت حجارة صغيرة في الممر • هو أيضا فغر فاه • وهتفت :

ــ أصبحوا بالقرب منا ••

ــ لا تخافي •• صحيح أننــا هدف • الا أن هناك من يدافع عن البناء •• أما تذكرين حديث الصباح الباكر ؟

ــ لكنني خائفة • لنفتح الباب ونسأل المسلح الذي في المدخل • كيف الطريق الى النجاة ؟•

ــ هل أنت مجنونة ؟ أتعرفين من يكون هــذا المســلح ؟ الذين يطلقون الرصــاص يتحولون الى أناس مختلفين •• لا تتحكم عقولهم بهم •• انهم يتصرفون من خلال نزواتهم •• لا •• يجب أن لا يعرف أحد منهم ، ان في هذا المنزل اناسا أحيــاء • اخفضي صــوتك •• ولننتظر ••

قالت رنا بصوت منخفض :

ــ وماذا نفعل ؟

ــ سنصبر ••

عادت الى المكنسة ، وأخذت تجر بقايا الحجارة من الممر ، دون أن تقترب من باب الصالون • عــاد الممر نظيفا • وظل الرصاص يلعلع •• قالت رنا :

ــ سأصنع لك قهوة •

ــ لا •• اذا كنت ترغبين بقهوة جديدة سأصنعها أنا ••

ــ ولو •• ألا تريد أن تتذوق قهوتي ؟

صمت الرجل مستسلما ، وفيما هي متوجهـة الى المطبخ • أمسك بيدها وقال :

ـ انتظري !

كانت راحته دافئة • وتقدمها الى المطبخ • اقترب من النافذة • كان الرصاص بعيدا وقال :

ـ لا بأس ••

تركها في المطبخ وخرج الى الممر ••

أرادت رنا أن تغسل الركوة من قهوة الصـباح • وعنـدما فتحت صنبور الماء • لم ينزل شيء • هتفت :

ـ المياه مقطوعة •

دخل الرجل مسرعا ، وصاح :

ـ هذا أسوأ ما في الامر • من دون ماء ماذا نفعل ؟

صمت لحظات ، كان مرتبكا ، وهي كذلك • قال :

ـ في البراد ما يكفينا للشرب مدة طويلة (تذكر) آه •• البراد بدون كهرباء •• ثم التفت مشيرا الى الزاوية :

ـ هذا الغالون •• خذي ماء من هذا الغالون للقهوة •

ـ ولكن كيف نغتسل ؟ قالت رنا ••

ـ صحيح •• ربما المياه مقطوعة مؤقتـا •• سننتظر • أرجـوك اصنعي القهوة •• أنا أصبحت بحاجة لها فعلا •

صنعت رنا القهـوة ، ثم دخلت بهـا الى الممر • كان الرجـل قلقـا ومستكينا ، وعندما رشف رشفة من فنجانه ، همهم :

ـ قهوة لذيذة • أشكرك ••

ـــ صحيح ؟
ـــ ولو ، قهوة سيدة ، سيدة بيت ..
« لماذا اسمها سيدة بيت . لانها تجيد مثل هذه الاشياء » وأمام هذا الاطراء ، قالت رنا :
ـــ أعطني لفافة .
وقدم لها العلبة. أخذت لفافة وأشعلتها. سعلت سعلة خفيفة . قال :
ـــ ستعتادين عليها .
ـــ لا بأس .. انها تسلي فعلا ..
ـــ لا تبلعي الدخان ..
ـــ حاولت يوم أمس أن أبلعه وكدت أختنق ..
ثم تذكرت انها تدخن من احتياطي الرجل ، فقالت :
ـــ اذا طلبت منك لفافة مرة أخرى .. لا تعطني ..
ـــ لماذا ؟
ـــ أخشى أن تنفد علب السجائر وتتحول الى رجل عصبي .
ـــ من هذه الناحية لا تخشي علي .. ارادتي قوية ..
وتذكرت ميشيل زوجها الذي يدخن باستمرار ، وانها ما من مرة اشتهت أن تطلب لفافة . بل كانت تتضايق من رائحتها . وكان ميشيل اذا نسي مرة جلب علبة وفقد آخر لفافاته ، تحوّل الى رجل عصبي ، يذرع غرف المنزل وصالونه جيئة وذهابا ، قالت :
ـــ ميشيل .. يتحول عصبيا عندما يفقد لفافاته ..
ـــ من هو ميشيل ؟
ـــ آه .. نسيت أن أخبرك .. زوجي ، زوجي ، اسمه ميشيل .
ـــ قد يكون هذا صحيحا في الحالات العادية .. أما في مثل هذا

الوضع فالأمر مختلف •• أنا واثق أن انشغاله عليك الآن قـد ينسيه السجائر • واذا فقدها لا تكون لها أهمية أن يجدك •

صمت ، ثم قال :

ـ العادة •• انها عادة سيئة على كل حال ••

الرصاص ، حركت مفتاح الراديو، نداءات المذيع المؤلمة• الرصاص :

ـ انهـم لا يكفون عن الصـراخ • كما ان الرصاص لا يكف • ما رأيك في هذه المعادلة ؟

وكان سيتحدث • الا أن صـوتا يصـرخ في الراديو « مجددا نحن معكم • جميع مداخل العاصمة وطرقاتها والطرق المؤدية اليها غير آمنة » موسيقى •

ـ فاتنا أن نفطر • (قال الرجل) •

فردت رنـا :

ـ لا بأس •• الساعة الآن الثانية عشرة • اقترب وقت الغداء •

ـ لم أتنبه •• في الواقع لم أكن جائعاً •• اعذريني ، لم أتنبه ان عليك أن تفطري في الصباح ••

ـ من قـال ان عليّ أن أفطر • أنا مثلك أيضـا لم أتذكر • لانني لست جائعة ••

وضحك الرجل :

ـ سأصنع لك غداء جيدا ••

ـ ولماذا ؟•• لا يزال صـحن السباكيتي على حالـه • سـنأكل •• سباكيتي ••

ـ انه طبخ البارحة ••

ـ لا بأس •• لا بأس •• كان أكلة طيبة •• سنأكلها اليوم أيضا •

- ٨ -

كان المساء قد جاء ، رنا مستندة الى الجدار ، متعبة ، والرجل يتحرك من باب المطبخ حتى باب الصالون • وذلك الرصاص لم يتعب • شديد الشراسة • يتناوب طلقة وراء طلقة كأنه مخلوق حي تلاحقه آلاف الوحوش • يركض يمينا ويسارا • لا يلتقط أنفاسه • تفوق سرعته كل شيء • الريح والصوت والصراخ والموج ، يخرج من الفوهات الفولاذية بضغط لا يفتر على الزنادات • كيف يمكن أن تتحول مدينة أنيقة نظيفة ، الى كل هذا النوع من الحقد والقذارات والهدم والحريق ؟ كل هؤلاء الناس ، الذين معا في معمل واحد ، في متجر واحد • في دائرة واحدة • في الابنية والمطاعم والشواطىء • يأكلون خبزا واحدا ، يشربون نفس المياه • يلتقون صباح مساء • يدفعون نفس الضرائب ، يشاهدون نفس البرامج التلفزيونية • جميعهم يحبون فيروز ووديع الصافي وعبد الوهاب وأم كلثوم • جميعهم يتكلمون لغة واحدة ، ولهجة واحدة ، يتسابقون في السيارات ، ويحضرون مباراة كرة القدم • جميعهم يعطلون يوم الاحد ، ويصطافون في الجبال ، يتشمسون على البحر • يستحمون في نفس المياه • ويلعب أولادهم مع أولاد بعض • يقرأون نفس الصحف • ينتخبون نفس

الزعماء • يسافرون ويشتاقون للعـودة ، يحبون الضيف ، ويكرمون عابر السبيل • أفراحهم واحدة ، أحزانهم واحدة ، كلهم يحملون لقب المواطن • وكلهم يفخرون بالانتماء الى هـذا الوطن الجميل • كيف اذن انهار كل شيء فجأة • وحل محله : الحقـد والرصاص والقتل • كأنهـم أعداء يتحاربون منذ آلاف السنين •

من كان يفكر بمثل هـذه الصـورة ، رنا أم محمود ، رنا فكرت ، وتساءلت • وذلك الرجل الذي يخطو أمامها جيئـة وذهابا في مترين من الارض الصلبة • أما فكر بمثل هذه الامور •• أما تساءل مثلها : لمصلحة من يجري كل هذا الدمار ؟

وراحت رنا تتأمله : أسمر ، طويل ، أقرب الى النحول • اذا طال هذا الحصار ماذا تفعل ؟ ماذا يفعل ؟

ـ أنت تفكر بخطيبتك ؟

ـ وأنت تفكرين بزوجك وابنتك !

وصمتا ، هل هـذا صحيح ؟ تساءلت رنا ، هل يفكر بخطيبته •• أم يفكر بطريقة ما للنجاة ؟ هي كادت تنسى كل ماضيها • انها تريد النجاة •• كيف ؟ والرصاص الهمجي لا يقف • انفجارات ورائحة الحريق والبارود تملأ جو الممر المعتم :

ـ تشربين القهوة ؟

ـ أشرب ••

غاب الرجل في المطبخ ••

« الى متى سنظل هنا •• في بضعة الامتار هذه ، لا نستطيع التحرك ، والخوف من المجهول يساورنا ؟• أي مجهول ؟• أليس هناك الموت ؟ في الباب ، في النوافذ ، في الشارع ، وعلى الرصيف ؟ بل هنا على بعد متر أو

مترين •• كيف ؟ ربما هــذه اللحظة يسقط البنــاء فوق الرؤوس • أي مجهول ؟ كل شيء واضح • خيط ضئيل بين لحظة الحياة ولحظة الموت •• الا أن الموت يتقدم ، يحقق نصرا وراء نصر •• في لحظــة واحــدة يحصد العشرات • يقتل الرؤية في العيون ، يجمد كل حركة ، الموت الذي يركض ركضا في كل اتجاه ، يلتقط كل قلب يخفق • وكل يد تتحرك ، وكل جفن يرتجف • وبضربة واحــدة يوقف كل شيء ، والحياة الضــعيفة تهرب ، تختبىء وراء الجدران • وفي الممرات ، تعاني خوفها المرتجف • الحياة لها صباح ومساء ، ونوم ويقظة ، دبت الفوضى فيها • لان الموت أعلن الحرب عليها • فلم تعد تعرف صباحها من مسائها ، ولا نومها من يقظتها » •

بل ان رنا اندهشت وهي تفلسف الامور • أما كانت تحب ذات يوم أن تصبح نجمة ، كاتبة ، شاعرة ، صحفية ، كانت تلتهم الكتب التهاما ، في الفرنسية ، والعربية • كانت تحضر أفلام السينما عدة مرات في الاسبوع • كانت تفكر • وتكتشف ثغرات ، وتنــاقش ، وتتمنى لو تســتطيع أن تكتب ما تفكر فيه • وكانت ملجــأ لصديقاتها اللواتي يحملن اليهــا همومهن ، ومع ذلك كانت تنصحهن باســلوب من عركتــه التجارب وشيبته الاحداث • ولا هي عركتها التجارب ولا شيبتها الاحــداث • وطوال عمرها الربيعي لم تفكر بالموت • كانت تقول لنفسها : أنا ابنــة الحياة الآن • والموت بعيد • وكانت على حق تلك السيدة الجميلة ، التي في عينيها حقول الزيتون المتعددة الالوان • وفي سمرة بشرتها حقول البن • كل الذين أطروا جمالهــا • كانوا يتعجبون من هــذا الصــفاء المتحرك المتوتر دائما في عينيهــا • وكانت تفرح وتتظاهر بالتواضع • كانت كلما تأملت وجهها • جسدها ، في المرآة ، أدركت ان جمالها يفوق

جمال صديقاتها ، بل هي في هذه اللحظة الخائفة• أخذت تلامس بشرتها بيد وتداعب صليبها بيد ، وأمام خوفهـا من استمرار انقطاع المياه ، خافت أن تبدو أقل جمالاً مما كانت • ولكن الرجل الغريب ، الذي هي واياه تحت هذا السقف • في هذا الممر الضيق • أما أطرى جمالها ، رغم كل هذا الخوف قال شيئا فيها • وأحبت أن تبدو في عينيه جميلة • كما تحب أن تبدو في عينيها هي جميلة • ولحظة دخل الرجل وفي يديه ركوة القهوة ، كانت تمسّد شعرها الناعم بيديها • ورغم العتمة المسيطرة • فان بصيصا من النـور كان يتسلل من باب المطبخ ليصب على جـزء من وجهها • أما رأته في لفتة عابرة يتأملها ، ثم ينحرف الى طرف الممر ، يضع صينية القهوة على الكرسي الواطيء • يصب لها فنجانا ويقدمه لها ، ثم يصب لنفسه آخر • ويقدم لها لفافة تبغ • تعتذر • يشعل لنفسه واحدة • وفي لحظة اشتعال عود الثقاب اتنبهت الى عينيـه في عينيها • على وجهها مباشرة • وطيف ابتسامة يداعب شـفتيه الجافتين الغارقتين في سـمار داكن • قالت :

ــ بدأت اعتاد صوت الرصاص •

ــ ستعتادين أكثر ، وسيزول خوفك تدريجيا ••

ــ أرجو من الله أن تظل في منأى عن الخطر •

ــ أرجو ذلك ••

ــ في المرة الماضية • هل كان المسلحون في البناء ؟

ــ لا •• بل كان نصف السكان فيه • أما الآن ، يبدو أن لا سوانا • وهؤلاء المسلحون أمام المدخل وفي السطح • ولا أدري أين أيضا ؟

ــ الوضع ، اذن ، هذه المرة أشد خطورة ••

ـ صحيح • ولكن لن يقترب منا أحد • انهم متلـّهون في اطلاق الرصاص بعضهم على بعض وأرجو أن لا تشغلي بالك بهذا الموضوع •

كانت العتمة قد اشتدت • كما ان صوت الانفجارات أيضا ، همست ، بل لعلها تحدثت بصوت عال :

ـ في الليل ، ألم تلاحظ ؟ يشتد القتال • كيف يرون بعضهم بعضا ؟
ـ من قال لك انهم يرون بعضهم بعضا • انهم يطلقون كل في اتجـاه الآخر، وكل طرف وراء متراسه آمن• ولا يضيع الا البريء الذي لا علاقة له بما يحـدث ، والذي ليس محتاطا لنفسـه • وفي الليل يشتد الرصاص وتشتد الانفجارات ، ليمنع كل طرف الآخر من التقدم تجاهه • ليوحي له أنه موجود بقوة ••

ـ كأنها حرب لا نصر فيها ؟
ـ أبدا • لا نصر لأحد في معركة لا يتحرك فيها مقاتل،كل طرف من وراء متراسه •• انهم يحرقون البلد لا أكثر ولا أقل • يقتلون الابرياء • تصطاد القناصة الذين يقودهم حظهم التعس الى التنقل ، من أجل لقمـة الخبز • انها حرب لا غالب ولا مغلوب ، وهي أتعس الحروب وأشـدها انتحارا • اذ لا ينتصر أحـد الفريقين على الآخر • ولا يخسر الا الابرياء أمثالنا • أنا واياك محاصران ، لا نعرف ماذا نفعل ؟ لاننا لا ننتمي الى هذا الفريق أو ذاك ••

- ٩ -

استلقت رنا تحاول النـــوم ، كذلك الرجـــل في الطرف الآخر ، ربما انتصف الليل ، هل تسأله كم الساعة ؟ ساعتها متوقفة ، نسيت أن تعبئها . ربما كان نائما . لو كان نائما لسحب يديه من تحت رأسه . لا ، انــه يحدق الى السقف . بماذا يفكر ؟ لعله يفكر بحبيبته . ماذا يفعل ميشيل ؟ بالتأكيد فقد أمل العثور عليها ، هل هو نائم ؟ لا لن ينام ، يحبها .كيف ينام وهي بعيدة عنه مجهولة المصير ؟ ماذا يقـــول لهيلدا .. هيلدا الجميلة الرائعة ؟ كيف تسأل عنها ؟ هل تقول له : أين ماما ..؟ غابت طويلا ماما . وتبـكي تريد ماما .

أحست رنا بالاختناق . قاومت ، لـكنها فجأة أجهشت ، ها هي تبـكي للمرة الاولى ، حرصت أن لا يسمع الرجل الآخر صوت بـكائها . لم تستطع ..علا صوتها.. أرادت أن تعتذر لرفيقها الذي أزاح الـكرسي الواطىء واقترب منها . وضع أصابعه على شفتيها . باردة يده ، أم ان شفتيها حارتان :

ـ لا تعتذري .. أنا أدرك مـــا الذي يعتمل في صدرك ؟. تفـكرين بابنتك ، بزوجك .

أطلقت رنا لعواطفها العنان وأخذت تبكي ، حاول أن يجفف دموعها بمنديل سحبه من جيب بنطاله الخلفي • أخـذت المنديل من يده وغطت وجهها به • وتمنت هذه اللحظة لو تفقـد سمعها • فلا تستمع الى عويل الرصاص والانفجارات في الخارج • بل ان رعشات الصمت التي كانت تنفذ الى داخلها بين أصوات الصراخ الهائل تشعرها بوحشتها وخوفها • ومن خلل دموعهـا وصوتها المتحشرج هتفت بالرجل :

ــ يجب أن نخرج بأية صورة •• يجب أن نخرج !

هدأ من روعها • وطلب منها أن تستعيد هدوءها • ثم يفكران في الامر • لكن صورة هيلدا وهي نائمة • وحيدة • ألحت على ذاكرتها • خشيت أن يكون ميشيل نسيها • ولعله يتحسّر عليها ويعتبرها في عداد الاموات • بل لعله هذه اللحظة يفكر بامرأة أخرى يعيش معها •

وازداد نحيب رنا عندما راودتها هذه الافكار •• هل يمكن لهيلدا أن تنشأ مع امرأة أخرى ، تكبر وتنساها وتصيح بالمرأة الغريبة « ماما » ؟

اقترب منها الرجل أكثر، أخذ رأسها وضمه الى صدره وراح يواسيها :

ــ أنت خائفة • ولمَ الخوف ؟ صدقيني سوف تعودين الى بيتك ، الى ابنتك •• الى زوجك • أؤكد لك أن أحدا لن يقترب من هذا البيت • لا بد أن ينتهي القتال كما انتهى في الجولة الماضية ، وتعودي ••

كانت يده الباردة تلامس جبهتها الساخنة ، ثم ترتد الى شعرها ، فيما كان يغمرها الى صدره أكثر بساعده ، وهي حقـا أحست هذه الهنيهات باستعادة السلام في داخلها ، وتوقفت عن البكـاء ، وان ظلت دموعهـا تنهمر بغزارة • ومن غير ما شعور شدت جسدها الى جسد الرجل كأنها طفلة تريد الاحتماء به من غـول يكاد ينهشها ، ورمى يده الأخرى على ظهرها وراح يمسّده رويدا رويدا ••

ـ لا تخافي • لن أتركك • انك معي ، مصيرك مصيري ، وغداً في الباكر سأحاول أن أجد طريقة ما لنترك هذا المكان • عسى نستطيع التسلل من الخلف وتعودين سالمة الى منزلك •

ظلت رنا صامتة ، تلتصق بالرجل أكثر فأكثر ، حتى خيل لها انها امتزجت بلحمه • وفي لحظات سريعة الخطف بين العقل والقلب ، أحست أن الرجل الذي يحتضنها ، كأنه يحتضن فيها إبنته أو أخته • ضايقها الشعور • فعاودها البكاء• وخالطتها الافكار• أفكار مضطربة لا رابط بينها ولا منبع محددا لها • ابنتها • الموت • زوجها • الموت • بيتها • أختها في المستشفى•الموت ، أمها ، أبوها ، أهلها • صديقاتها هنا وهناك •• الناس ، الطفولة • الموت • مدن لا أسوار لها • عودة الى آلاف السنين • الموت • ثم هذا الرجل الهادىء الحزين الذي يضمها الى صدره الآن ، تشبثها به تشبثها بالحياة ••

وعاودها الحس بلحظتها الحاضرة من جديد • ولأول مرة منذ غادرت منزلها • تشعر كأنها عادت اليه ، وكأن الاطمئنان أخذ ينتصر على أصوات الرصاص والمتفجرات في الخارج وفي رأسها • وأرادت أن ترمي في روع الرجل انها ما زالت خائفة • أجهشت • فشدها الى صدره أكثر • ولا تدري كيف هذا حدث • اذ رفعت يدها الاخرى ، وعانقت جسد الرجل وراحت تضغط على ظهره • وازدادا التصاقا • بل أصبحا كجسد واحد متماسك يخفق بقلبين ، وتلتف ايديه الاربع على أطرافه متشابكة ، كأن كل جزء منه يحاول الهرب والآخر يمنعه •

- ١٠ -

تنقلت رنا بين النوم واليقظة طويلا • أحاديث جمة رابطت في رأسها، وهي مشتتة بين الخوف والرجاء ، ربما نامت ساعة أو ساعتين • ربما صافحها الرصاص في جبهتها وصدرها • وكانت مرمية على رصيف • ترى الرصاص يخترق جسدها ، وينفر الدم سخيا وأحمر قانياً ولا تموت بل كثيراً ما رأت آلاف العيون خلف بنادق لا تهدأ عن الجنون ، وهدفها الوحيد جسدها الساخن المرتجف • كلهـا تصوب الى رأسهـا ، ثم الى عينيها • وكانت تحس بالرصاص يخترق وجهها ، ومع ذلك كانت تراهم جيداً ، ملثمين ، وراء عيون صخرية شديدة الحقد والكره ، يطلقون عليها الرصاص ويضحكون بأصوات عالية ، بل أن أحدهـم قذفهـا بقنبلة ، فأسرع الجميع يقذفونهـا بقنابلهم • أصوات الانفجارات في صدرهـا وحضنها ، وبين يديها ، ولا تموت • كل البناء الذي تستند اليه انهار فوقها ، غمرها التراب ، عشرات الجثث كانت تئن الى جانبها ، أطفال ونساء وشيوخ ، كانوا يمدون أيديهم ولا تستطيع الوصول اليهـا ، وكانت تحاول أن تساعدهم ، لكنهـا ملتصقة بالارض ، دمهـا اللزج الكثير التدفق الصقها بحجارة الرصيف ، كانت تهم أن تنهض ، لكن الرصاص يحاصرها من كل جانب ، صوبوا الرصاص على القرط الذي في أذنيها،

مزقوه • وظلت رنا مستغربة : لمــاذا لم تمت الى الآن ؟ أجالت الطرف حولهــا ، الجثث منتشرة فوق أرض الشارع بكثرة ، جثث لا تتحرك تنهشها الفئران والجراذين • رائحتهــا عفنة ومزعجة ، والرصاص تراه الآن مثل ندف الثلج،يتطاير بطيئاً بطيئاً ثم ينفجر في الجو ، قرب أذنيها، على صدرها ، وهمت أن تصرخ ، لكن صوتها لم يخرج من حلقهــا • رأتها أمامها ، المدينة التي أحبتهــا ، تحترق ، كل ذكريات الصبا هبت هذه اللحظات • هناك على الشاطيء في الريفييرا ، في الجبال الخضراء، في ثلج فاريا ، في شارع الحمراء • تلك المدينة العروس المزدانة بمليون نجمة وضوء ، هاهي الآن تتراكم أمامها كومــة من ورق يشتعل ، أو خشب يابس التهمته النيران ، وكانت ستمد يدها الى السماء تستنجد بالرب ، لكن رصاصة ثقبت كفها • ورمت يدها جانباً ، لم تكن رنــا تستشعر الألم في جسدها • الا أن ألوف الجنازات كانت تشيّع ، كل الذين أحبتهم ، ها هي جنازاتهم تمر من أمامها ، وهي كسيحة ملتصقة بالرصيف • زوجها ! هاهــم أصحابه خلف نعشه ، يتلفتون نحوهــا ويغمزونها بأعينهم • وكادت تصرخ باكية عندما مر نعش صغير علــى عربة ، الصليب يلتمع على خشبه المجلل بالسواد ، الا أن رأساً صغيراً اخترق الخشب ، وراح شعره الأشقر الناعم يتطاير • كان رأس هيلدا وهي تناديها بحرقة « ماما •• ماما » وأرادت أن تنجدها ، حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تنطلق نحوهــا ، لكن النعش أخــذ يبتعد ، وهي ملتصقة بدمها اللزج الى الرصيف ، ويــد هيلدا تلوح • بكت رنــا • أحست انها تبكي ، أرادت أن تمسح دموعها ، فانتبهت الى أن راحتهــا ملأى بالدم المتخثر • وتمنت أن تموت ، أن يلقى بها على نعش ابنتها • لكنها ظلت حية تشهد قوافل الجنازات ، وتلك أمهــا ، أمهــا الحزينة

بشعرها الأشيب تنظر صوبها صامتة وهي مسجاة ، وخلفها أجساد بلا رؤوس وخيالات وأشباح . وبدا لرنا كأن المدينة كلها تشيّع أمامها ، بصلبانها ، بمآذنها وأصوات مؤذنيها ، بأجراس كنائسها ، وكان الرصاص وحده هناك يضحك ملء شدقيه ويرقص رقصه الجنوني . وما ان انتهت قوافل الجنازات ، حتى عاد الرجال الملمثون ، وأحاطوا بها من كل مكان ، بنادقهم في أيديهم ، وعيونهم ترمقها بخشونةوصلف. واتتبهت الى أن الرجال الملثمين بمختلف فئاتهم يصطفون صفوفاً صفوفاً ، ثم بدأ الصف الأول باطلاق الرصاص عليها ، أحست بثقوب من دم تفجرت في جسدها ، لكنها ظلت واعية لما يحدث ، تنحى الصف الأول جانباً ، وتقدم صف آخر من الملثمين ، أطلق الرصاص ، ازدادت الثقوب في جسدها ، ثم جاء صف ثالث ورابع وخامس وسادس ، والثقوب تكثر والدم يتفجر ، الى أن تحول دمها نهراً غمر الشارع فاجتاح الجثث الملقاة واجتاح الرجال الملثمين والأبنية المتهدمة والسيارات المحترقة . واذ بنهر الدم يغمر المدينة من كل أطرافها ، وتتحول السماء الى لهب أصفر . واستغربت كيف ظلت وحدها تشهد كل ذلك وهي حية ، وهي في غمرة اندهاشها أمسكت بالصليب المتدلي من عنقها وقبلته . ولا تدري لماذا تلك اللحظة تذكرت محمود ، هذا الفارس النبيل الذي لم يبق لها سواه . فلا هي رأت جنازته ، ولا لمحت عينيه بين العيون الجامدة التي أطلقت عليها الرصاص ، عينيه اللتين باتت تعرفهما بين ملايين العيون . ونادته . لكن أحداً لم يرد ، وظل نهر الدم يكبر ويتضخم الى أن تحول بحراً لا مراكب ولا أشرعة فيه ، بحراً راكداً أحمر لا موج ولا شواطىء له ، وهي وحيدة لا تعرف كيف تشاهد كل ذلك ومن أي موقع . واتتبهت من جديد أن جسدها ما زال نبعاً لكل

هــذه الدماء . حاولت أن تسد الثقوب براحتيها فما قدرت . وتمنت من الرب في هذه اللحظات ، ويدها على صليبها ، أن ينقذها من هــذا الاثم ، أن يريحها من هذا المشهد المرعب ، وكأن شيئاً قوياً حملها عالياً وألقى بها أرضاً ، فاستيقظت وفي أنفها رائحة غبار .

في تلك اللحظة انتبهت الى محمود يحاول ايقاظها . وما أن وقفت حتى شدها الى المطبخ وغمرها بصدره ، كان وجيب قلبه يهتز . ابتعدت عن الرجل وحملقت فيه . كان نور النهار قد بدأ يتسرب ، وانتبهت الى وجهه المصفر وشفتيه اليابستين المرتجفتين . قال للتو :

ــ كدنا نذهب ضحية انفجار . انفجار أصاب البناء مباشرة،وربما أصاب واجهة هذا البيت بالذات .

وتكاثرت الانفجارات ، طغت على أصوات الرصاص ، وانتبهت رنا الى يــد الرجــل اليسرى ، تهشم ظاهرها ودميت ، حتى الساعة التي في معصمه تحطمت . هتفت فزعة :

ــ يــدك .

وتذكر الرجل يده ، نظر اليها ثم الى الساعة ، وقال بصوت مرتجف :
ــ لا أدري .. ربما حدث هذا ساعة الانفجار القوي الذي هــز البناء . ربما نهضت فجأة واصطدمت يدي بجدار أو زجاج ، لا أدري . لا أدري .

واقتربت رنا ، أخذت يد الرجل بين راحتيها ، قال لهــا :
ــ انها جروح بسيطة على كل حــال .
وعاودت النظر اليه . لقد تغير وجهه . بان التعب والارهاق عليه .

نبت شعر ذقنه بقوة • وتذكرت نفسها ، فلامست وجهها بيدها ، لا شك أنه يراها الآن كما تراه متعبة ، مرهقة ، ذاوية كشمعة تنوس • قالت :
ـ ماذا سنفعل ؟

لم يجب للوهلة الأولى ، فتح صنبور المـاء فلم تنزل قطرة • اقترب من الغالون•لم يبق فيه الا القليل • اقتربت منه ، طلب أن تفتح راحتيها، ثم صب فيهما بعض الماء • غسلت وجهها ، ثم فعل هـو نفس الشيء • مسح بالمـاء ظاهر يده المحطمة • ثم تناول من الرف زجاجة كولونيا ، وصب على يده المدماة منها • فاحت رائحـة العطر ، فتحت رنا يدهـا للرجل •• ثم مسحت عنقهـا ووراء أذنيها • وتركته الى الحمام • مرت لحظات على رنا ، ولما أخذت تنظر في المرآة من خلال بقية الضوء المتسللة هالها شكلها ، تركت الحمام • وبحثت عن حقيبتها • عادت بمشط صغير وراحت تمشط شعرهـا ، بدت الآن على قليل من التحسن ، مثل مهرة سمراء تستعد للعدو في حقول لا نهاية لهـا •

عندما خرجت ، وجدت الرجل مستنداً الى باب المطبخ ، وهو يحدق عبر نافذته الى الفضاء المغبر بدخان وألوان من الغيوم قاتمة • وعندمـا أحس بحركتها ، التفت صوبها وقال :

ـ سنحاول الخروج •• سنترك هذا المكان ، ما رأيك ؟
ـ هل تعرف كيف ؟
ـ سنخرج من باحة البناء الداخلية صوب الأبنية الخلفية الأخرى، هناك وراء البناء الملاصق لبنائنا زاروب ضيق ، منه ، سنحاول الخروج، اذا استطعنا النفاذ منه ، نكون قد وصلنا الى خلف الشارع ، وأظن أننا، اذا تحقق ذلك ، نصبح في أمان •

عندما صمت ، كانت رنا تفكر ، ثم قالت :
ـ أنا لا أعرف المنطقة . أنت ابنها ، لا أدري . أرجو أن تفكر بصورة أوضح ، اذا وجدت ذلك ملائماً فأنا معك .
لاحظت رنا التردد على الرجل ، قالت :
ـ لو كنت وحدك .. ماذا تفعل ؟.
نظر اليها بحنان وابتسم :
ـ لا أدري .. حقاً أنا في حيرة . لكن ، علي الآن أن أفكر في الواقع الذي نحن فيه . أي انك موجودة .. وعليّ حمايتك .
أمسكت بيده وغمرتها براحتيها :
أشكرك .. إنك انسان نبيل .
ـ وأنت سيدة شجاعة .. سيدة عظيمة .
واغتبطت لهذا الاطراء ، قال الرجل :
ـ يبدو أن صوت المعارك قد خفّ .
ـ ربما تعبوا .
ـ وربما بدأت ذخيرتهم تنفد (ثم تابع) هذه فرصتنا .
ـ كما تريد .
خطا الرجل الىَ الداخل بسرعة ، وعاد يحمل جاكيته ، ثم صاح برنا :
ـ هل يضايقك الصندل .. هل باستطاعتك السير به بسرعة ؟
ـ لا بأس .. انه على كل حال أفضل من الحذاء النسائي .
ـ انتبهي .. هل أنت مستعدة ؟
فكرت رنا مطولا ، ثم قالت :
ـ أنا معك .

ـ تعالي •

وأمسك بيدها ، اقتربا من النافذة ، قفز الى الخارج ، وقفزت خلفه• أسرعا صوب تحويطة البناء من الطرف الآخر ، صعد الرجل ، ثم أمسك بيد رنا ورفعها ، وألقيا بنفسيهما معاً الى ساحة البناء المجاور • لعلع الرصاص بشدة ، احتميا بزاوية البناء • كانا يلهثان • أخذا يتأملان الأبنية المحيطة ، معظمها مغلق النوافذ • لا حركة فيها • وارتجفت رنا عندما لمحت على سطح البناء المواجه لها رجلا ظهر فجأة ثم غاب لتطل فوهة بندقيته صوبهما •

هتفت : قناص !

ارتد الرجل برنا الى الخلف ، كانت يده في يدها « هي كانت ترتجف أم هو ؟ »

ـ لقد لمحته ، كان ينظر نحونا بالتأكيد • خفت أن يطلق علينا الرصاص •

حاول الرجل أن يبتسم ثم همس :

ـ حمانا الله • (ثم أردف) : هيا •

ركضا معاً نحو بناء آخر وهو يقول لها :

ـ سنظل خلف الأبنية •• هذا أفضل •

ـ كأن هذه الأبنية فارغة من سكانها ؟

ـ ربما •• وربما هم مختبئون كما كنا نحن نختبىء •

اقتربا من جدار ، قال لها :

ـ الزاروب خلف هذا الجدار ، منه سنخرج الى الشارع الخلفي•

قفز ، ثم أمسك بيدها ، قفزت هي الأخرى ، وقفزا معاً الى الطرف الآخر • وسرعان ما فغرت رنا فاها دهشة ورعبا :

ــ يا الهي •• جثتا طفلين !

واتنبهت الى جثة رجل منتفخ على بعد أمتار من الطفلين • ثم سيارة محطمة • زجاج محطّم ، محلات منسوفة ، وهاجم رنا الخوف ، صارت ترتجف • أرادت أن ترتد الى الخلف • وخطا الرجل نحوها وحماها خلف ظهره • قال هامساً :

ــ جئنا الى قلب الخطر •• سنرجع •

الا أن رنا كانت تهذي ، ترسم الصليب على وجهها تارة ، وعلى صدرها تارة أخرى • وتقدم الرجل حذراً الى منتصف الزاروب • رصاص غزير وقوي ، قال :

ــ لمحت متراساً في رأس الزاروب ، وجماعة خلفه مع رشاشاتهم • ربما رأوني • انهم يطلقون الرصاص صوبنا •

قالت رنا مرتعدة وقد دب فيها خوف فاجع :

ــ لنرجع •• أرجوك •

وأحست أن ركبتيها تصطكان بشدة ، واتنبهت الى الرجل ، كان هو أيضاً في حالة من التردد والفزع • كان يمسك شفتيه بأصابعه ويضغط عليهما ، لم يقل كلمة • ارتد الى الجدار وقفز فوقه ثم أمسك بيدها ورفعها • وفي اللحظة التي ألقيا بأنفسهما خلفه تطاير الرصاص فوق رأسيهما • ربما لامس شعر رنا • بل لامس شعرها • وقد تأكدت

من ذلك عندما مسحت براحة يدها شعرها من قمة رأسها الى الخلف • فاذا بجزء منه يتساقط محروق الأطراف ، صرخت :

ــ كادوا يقتلونني !

وتطلع الرجل اليها بعينين يائستين :

ــ ماذا نفعل ؟ ليتنا لم نخرج •

ــ هذه المرة لن ننجو من القناص الذي في الطرف الآخر •

ــ لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا •• أرجو أن تصمدي •

ــ سنصمد • يجب أن نعيش •

ــ سنعيش •

ثم شدها من يدها ، وركضا الى طرف البناء المقابل • كان الرجل يتطلع فيما حوله بسرعة ، الى النوافذ ، الى السطوح ، ثم همس :

ــ كأنني ضعت •

كان يتلفت بعصبية :

ــ لا • لا •• هاهو البناء • يبدو لي خلف هذه العمارة • هيا إقفزي •

قفز وقفزت خلفه ، ثم ركضا بكل قوتهما الى الجدار الأخير الذي يفصل بين باحة هذا البناء والبناء الآخر • التقط الرجل أنفاسه :

ــ اقتربنا •

هي أيضاً ، كانت تلهث « نجـّنا يارب » وأمسكت بيده ، وكررت « نجـّنا يارب » ولمحت عدة رؤوس تتنقل بين سطح وآخر • ثم كثر تساقط الرصاص الفارغ بالقرب منهما • واعتقدت رنا أن النهاية باتت قريبة ، فأخذت تصلي بصمت • كان الرجل مقتربا من الجدار ، يترقب

السطوح بعينين حذرتين ، متماسكاً ، صامتاً ، ثم فجـأة ، حمل رنـا بين يديه ، وألقى بها الى رأس الجدار ، ودفعها الى الطرف الآخر ، قفز خلفها • رفعها عن الأرض ، ممسكا بيدها وراكضاً صوب نافذة مطبخ بيته ، وحملها بين ذراعيه ، ودفع بها عبر النافذة ، وقفز خلفها • حدث هذا في ثوان ، حتى أن رنـا لم تنتبه انها وصلت سالمة الى المطبخ واذ تيقظت وعرفت أنها عادت بأمـان • ألقت بنفسها على صدر الرجـل وراحت تبكي •

- ١١ -

قالت :

ـ كأننا ننتظر الموت !

ـ لا تتشاءمي !

ـ لابد سيأتينا الدور •• اننا في قلب الجنون !

ـ الله معنا • لا تخافي !

ـ هو مع كل الأبرياء •• ومع ذلك الأبرياء يقتلون !

لم يجب ، وأحست أنها أحرجته ، قال :

ـ سننتظر هنا • لن نغامر مرة أخرى ، عسى يصلون الى اتفاق •

ـ ولكن •• هل يتفاوضون ؟

ـ لست أدري •• انها أبشع حرب !

ـ وهل هي حرب ؟

ـ لا •• الحق معك ، ربما الجنون نفسه ، جنون أن يفقد الانسان عقله ، فيتصرف بشكل أهوج •

ـ ونحن ما ذنبنا ، أنت وأنا وكل هؤلاء البشر المختبئين في بيوتهم • بلا ماء • ولا طعام • ولا كهرباء •• ما ذنبنا ؟•

ــ ذنبنا أننا تركناهم يتمادون ••

ــ وماذا نفعل الآن لنوقف هذا النزيف ؟

ــ أرجو أن لا يكون قد فات الأوان ، عسى الحكومة تستطيع أن تفعل شيئاً ، عسى يتدخل الأشقاء ويوقفون هذا التقاتل الغابي •

وتذكرت الراديو ، تناولته وأشعلته ، صدرت عنه أصوات غير واضحة ، رمته جانباً :

ــ اننا مقطوعون • لا نعرف ماذا يحدث •• كيف هي الحالة ؟

ــ صلي لله أن يحمينا من أية قذيفة •• غير ذلك نستطيع أن نبقى طويلا •

رسمت رنا علامة الصليب على صدرها ، ثم رسمتها باتجاه الرجل فابتسم وقال :

ــ أشكرك •• أنا أيضاً صليت لله أن يحميك من كل أذى ••

وتطلع نحو ساعته ، فبادرته رنا :

ــ انها مهشمة !

قال :

ــ لقد فقدنا الوقت ، تصوّري ، فوق كل هذا الخوف ، سوف نعيش من دون وقت •

ــ وما قيمة الوقت ، اذا كان الموت يحاصرك في كل اتجاه ؟ يحاصرك الى أن تسقط لقمة سائغة بين يديه • أي وقت لم تعد له قيمة• اذا كانت كل المنافذ قد سدت علينا •

ــ لا تتشاءمي كثيراً أرجوك ، سنعرف الوقت من الصباح ، والمساء •

ـ الصباح والمساء ، ونحن في هذا الممر الضيق ، في هذا القبر ، بين المطبخ والحمام ، الذي بدأ يضيق برائحته • لا ماء ولا كهرباء • الا هذه الشمعة المتبقية التي نخاف عليها ، نشعلها ونطفئها لكي تتأكد على الأقل •• اننا ما زلنا أحياء •

أخرج الرجل علبة سجائره ، ثم همس :

ـ وما يزيد الطين بلة أن هذه العلبة هي الأخيرة •

ـ اقتصد بهـا •

ـ سأفعل ، سأشعل الآن هذه اللفافة ، هل تشاركينني فيها ؟

ـ لا • لست مدمنة • دخّن نصفها الآن ، ودخن نصفها الآخر في المساء •

إبتسم الرجل ، وأشعل اللفافة ، قالت رنا :

ـ هل لدينا بن ؟ واستدركت : هل لديك بن ؟

انتبه الى استدراكها ، قـال :

ـ لدينا بن ، اسمعي ، أنـا وأنت مسؤولان عـن بعضنا الى أن يفرجها الله •

وكادت تعتذر ، لكنها اتجهت الى المطبخ لتصنع القهوة •

في المطبخ ، انتبهت الى أن رصاصاً غزيراً يطلق من الطرف الآخـر للبناء « لقد أحكم الحصار » والشيء الذي آلمها هذه اللحظة أن الغاز بدأ ينفد ، كذلك علب الكبريت « الحصار في الداخـل أيضا يشتد » صنعت القهوة ودخلت بها الى الممر • كان محمود يقلّب كتاباً بالقرب من المكتبة • بل لعله كان ينصت في آن معاً الى مدخل البناء • اقتربت رنا ببطء ، هي أيضاً انتبهت الى أن ثمة حركة مريبة في الخارج ، إلا أن

رصاصـاً غزيـراً تساقط ، وأحسته لامس خشب الباب • صرخت • ارتدت الى الوراء • تلفت الرجل نحوها ، ووضع سبابته علـى شفتيه « هس » •• اقتربت نحوه :

ـ ما زالوا في الخارج ؟

ـ ربما جاء غيرهم ، استنشق رائحة دم مسفوح ، رائحة جثث ، رائحة الموت •

أمسكت بيده وجرته الى الداخل ، ظل الكتاب في يده ، وانتبهت الى سبابته داخل صفحات الكتاب ، كأنـه يقرأ شيئاً ويريـد متابعته ، صبت القهوة ، ففاحت رائحتها :

ـ ما أجمل القهوة في هذه الأوقات العصيبة !

ـ ستودعها الآن •• فاشربها بلذة من سيفارقها ، ولو الى حين •

ـ لمـاذا ؟

ـ الغاز ، الغاز بدأ ينفد ، كان واضحاً أن ناره تنوس ، وتخطفها نسمة عابرة من تحت الركوة •

ـ يبدو أنني نسيت أشياء كثيرة ، ربما لم أكن متوقعاً أن الواقعة ستقع وأنها ستستمر طويلا •

وعندما قدمت له فنجانه ، طبّ الكتاب على بلاط الممر مفتوحاً على الصفحات التي كانت سبابته بينها ، وقال متضاحكاً ولكن بعصبية :

ـ بعد قليل ، هذا المساء ، أو غـداً • لا سجائر لا قهوة لا طعام ساخن •

ـ لا بأس ، وقد تفرج هذا المساء أو غداً ، وأعدك أنني سأهديك صندوقاً من السجائر الفاخرة •

ـ أشكرك • وأعدك أن أعرفك على خطيبتي ، ونزورك معاً ، تتعرف الى زوجك ، والى الصغيرة الجميلة هيلدا •

ـ يارب يسمع منك ، هل تعتقد أن هذا سيحدث ؟

ـ سيحدث ، أنا واثق ، واثق ان حياتنا أنا وأنت لم تنته بعد •

وأخذا يرتشفان القهوة معاً • وكان كل منهما يسترق النظر الى وجه الآخر ، في حين كانت الانفجارات في الخارج تشتد ، فيغطي صوتها الطلقات النارية المتلاحقة دون توقف • قالت :

ـ ما هذا الكتاب ؟

ـ انه الجحيم

ـ الجحيم !

ـ رواية لباربوس

ـ مترجمة للعربية ؟

ـ مترجمة •

ـ وهل جحيمه مثل جحيمنا الذي نحن فيه ؟

ـ قد يكون أقسى من جحيمنا •

ـ واجه الموت ؟

ـ ربما الموت ، ربما نفسه ، وربما قسوة الحياة وتناقضاتها •

صمت الرجل لحظات ، ثم تابع :

ـ من قبل ، قرأت عن هذه الرواية في «اللامنتمي» لكولن ولسون وقد سررت عندما ترجمت فيما بعد الى العربية • أحببت هذه الرواية ، أحببتها ، وأتمنى لو تتاح لي فرصة دائمة لأقرأها من جديد •

ـ ماذا تروي ؟

ـ بطلها يلجأ الى غرفة في فندق ، ويغلق عليه بابها هرباً من الحياة ككل • ويحصر اهتمامه بالآخرين من خلال شرخ في الجـدار الـذي يفصله عن الغرفة الأخرى • انه يرى من خلاله الحياة بصورة جديدة يكثف كل أفكاره في عين واحدة ، وهو يتلصص فيها عبر الشق ، ومن خلاله يرى الحياة في الغرفة الاخرى ، يرى الموت ، يرى الحب ، ويرى الشهوة • لكن كل هذه الأشياء تتداخل فيما بينها ، ليقبض على حياة الفوضى ، وتكبر كآبته ، لا شيء في الحياة يأخذ مجراه الطبيعي ، انها الأشياء المتناقضة تتراكم لتشكل ظلماً وقسوة وألماً ، مخلوقات تخطف لحظات السعادة من بعضها بعضاً خطفاً ••

وصمت الرجل ، أخذ رشفة من فنجانه ، في تلك الهنيهات فرحت رنا إذ أخذ محمود يتحدث • لقد بدأت تعرفه • لا تستطيع أن تعرف إنساناً مالـم تتركه يتحدث إمـا عن نفسه ، أو عن أفكاره ، يجب أن يخرجا معاً من دوامة انتظار الموت ، ودوامة معاناة الخوف • ثم هـذه الغربة العاطفية التي يحياها كل منهما في طرف •

رفع الرجـل الكتاب عن الأرض ، فتحه • أخـذ يقلب صفحاته ، توقف ، قال : اسمعي :

أنصتت اليه ، قرأ :

ـ [كيف يمكـن للانسان ألا يستطيع قول مـا رآه [1] ؟ كيف يمكن للحقيقة أن تهرب من أمامنا ، وكأنها ليست بحقيقة ؟ أولا نستطيع أن نكون صادقين ، رغم صدقنا ؟ انك لا تحضر الى الوجود شيئاً ، حين

---

(1) العبارات التي تقع بين قوسين [•••] من رواية « الجحيم » لباربوس ـ صدرت عن دار الاداب ـ ترجمة جورج طرابيشي •

تناديه باسمه • الكلمات • الكلمات • انك لا تدري مــا هـــي ، وان عرفتها منذ طفولتك] وصمت ، ثم سألها « ما رأيك ؟ » •

ــ لم أكوّن رأياً بعد ، هات أيضاً •

أعطاها الرجل الكتاب :

ــ تصفحيه ، ستجدين خطوطاً واشارات ، عند عبارات وكلمات كثيرة •• تلك التي اخترقتني وتركت بصماتها فيّ •

وصادفت الصفحة ٣٨ فوجدت خطاً تحت العبارة [كان هذا أول شيء يكتشفانه • ان تقبل من يقبلك ، أليست هذه أنعم مداعبة حنون وأوثق رباط ممكن : ثم ان هذا محرّم أعظم التحريم !] •

وغامت الكلمات أمام عيني رنا ، وخشيت أن ينتبه أنها قرأت هذه العبارة بالذات ، وأخذت أناملها تلامس شفتيها المرتجفتين الساخنتين • والرصاص في الخارج يشتد عويله : [الغرف ، حين كنا صغارا وكانت كبيرة ، كان المشي فيها أقل تعباً من أي مكان آخر] عبارة حوارية في الصفحة التالية • ورنا : نحن معــاً في ممر ضيق منذ أيام • منذ متى ؟ نسيت • استرقت النظر الى يـــد محمود المهشمة ، والى ساعته المتوقفة العقارب « عقارب الوقت التي تشعرنا بأن العمر لحظات تفر منا لحظة وراء لحظة • » واستغربت : لماذا لم يخلعها من يـــده الى الآن ؟ هـــل ليتذكر أن الوقت أيضاً قد تخلى عنا ؟ وقلبت صفحة أخرى : [حــين تكون هرماً •• تتركه يموت ، أما حين تكون شاباً فتقتله] تحتها خط • عبارة أخرى [أريد أن أحبك أكثر • أريد على الأخص أن أحبك حباً أقوى • لكن لست أدري كيف••أريد أن أؤلمك لكن لا أعرف كيف] وتذكرت رنا زوجها ميشيل ، « هل نسيته ؟ هل الخوف ؟ هل الموت ؟

أم هذا الرجل الذي أمامي ؟ هذا الرجل الذي أحسه الآن كأنه يدخل شرايين عيني ويسكن في آحداقهما » • وتطلعت صوب الرجل ، كان متشاغلا ببقايا لفافته الملتصقة بشفتيه • لا ، بل هي مطفأة ، ولم يبق سوى عقبها الأسفنجي كأنه يمتصله امتصاصاً ، واتنبه الرجل الى رنا تنظر نحوه ، رمى عقب اللفافة من فمه ، ثم سألها :

ــ ما بك ؟

فوجئت بالسؤال ، كانت ستقول أنها تفكر فيه ، وكانت ستعيد قراءة عبارة « أريد أن أحبك أكثر » لكنها قالت :

ــ أسمع انفجارات من الخلف ، من خلف المطبخ •

ــ يبدو أن الاشتباكات قد توسعت •

وعادت الى الكتاب تقلب صفحاته ، وجدت عبارات تحتها خطوط ، أزاء واحدة منها كلمة « رائع » فالتقطتها بعينين زائغتين : [لا أجرؤ على النوم خشية أن ألفظ اسمك في الحلم] [اسهر ببطولة على قلبي] [كنت أخاف أن يكتشف الطهارة التي كنت غارقة فيها • أجل ، الطهارة حين يستيقظ المرء من الحياة ، في منتصف الحياة ، وحين يرى ألقاً جديداً للنهار ، وحين يعيد خلق كل شيء ، فانني اسمي ذلك طهارة] وهيلدا ، تلك الحبيبة التي تنادي الآن « ماما » لا شك تنادي « ماما » أخذت شفتا رنا تتحركان بتوتر على حرف الميم « ما • ما • ما » وفجأة ، ألقت الكتاب جانباً ، وأخذت رأسها بين راحتيها وراحت تجهش بصوت مخنوق •

وتركها الرجل لحظات • لم يقل كلمة ، بل خيّل لرنا أنه غادر الممر • وخشيت أن ترفع وجهها اليه ، خشيت نظرة الرثاء التي يمكن أن

تلتقطها من وجهه ، فظلت مغلقة وجهها على راحتيها تبكي بحرقة ، وأحست بيد تلامس شعرها ، رفعت وجهها فاذا بالرجل منحن عليها يواسيها :

ـ يارنا •• اهدئي •

« هل هي المرة الأولى التي يلفظ فيها اسمها • أم أنها سمعت ذلك من قبل ولم تعه • انه يناديها باسمها ، تسمع تلك البحة الحنون وهو يهتف باسمها • وقالت :

ـ اعذرني ، هيلدا ابنتي ، بيتي ، كم مضى علينا هنا••كم يوماً ؟ وهيلدا وحدها تناديني •• اعذرني أرجوك •

ـ أنا أقدر ظرفك ، صدقيني ان حزني عليك يفوق حزني على نفسي • ولكن ، ما باليد حيلة • أنت وأنا داخل الحلقة • داخل هذه البئر العميقة دون أي حبل من الرجاء • ماذا نفعل ؟

وأمسكت بيده ، وشدته الى الأرض ، فسجد أمامها وجهاً لوجه • لم يكن يفصل بين وجهيهما سوى زفير أنفاسهما المتوتر • تأملته في حين كان يتأملها • عيناه الغائمتان ، وجهه المغرق في سمرة داكنة • شعر ذقنه الذي نما حتى أسفل عنقه • انه يتأملها • ماذا يرى فيها غير هذا الوجه المتعب • وهذا الشعر المجعد • لم تر أناملها على وجهها منذ ساقتها أقدارها الى هذا البيت •• هل يراها جميلة ، كما كان يراها كل الرجال؟ زوجها ، أصدقاء زوجها • كل النساء من أمها الى أختها ، الى رفيقاتها ، كلهن كن يحسدنها على جمالها المتفرد • كأنها تجمع فيه كل نعومة نساء الأرض •

وكادت تقترب منه • وكادت تضع شفتيها على شفتيه • ولقد بدا

لهـا أيضاً أنه يقترب منها ، وفعلا ، فقد أخذ وجهها بين راحتيه ، وشب جنون مفاجىء في شفتيه • فأخذ يقبل كل نأمة في وجهها ، وهـي تلك اللحظات ، نسيت العالم ، والرصاص ، وجثث القتلى ، ونبتت في صدرها فرحة خافت عليها أن تفر ، فانغمست هي أيضا ، تقبل كل ما يصادف شفتيها في الرجل الذي جن بها ، وكلاهما مارسا الجنون تلك اللحظات، كأنهما يعودان الى السيرة الأصيلـة لكل حيـاة جديـدة كتبت فوق تراب مـا •

- ١٢ -

أيقظتهما من نشوة الاتحاد ، وتداخل الجسد في الجسد ، رصاصات قريبة ، ربما اصطدمت بزجاج المطبخ ، أو الصالون ، تلك الرصاصات المتطفلة ، والقذائف المتوحشة ، التي تخطف الانسان من كـل شيء ، وتتركه وجهاً لوجه أمام شيء واحد ومرير وقاس • ذلك الشيء الذي يوقف دقات القلب ، وتدفق الدم والأفكار ، والخوف والفرح،والحزن والاحساس بالجمـال والريـح والنور والظـلام : « الموت » وتلك الرصاصات هذه المرة كأنها تقصد فعلا دخول هـذا البيت ، بل هـذا الممر • تهدد باقتراب النهاية • تنزعهما معـاً من حس النشوة وسعادة اللحظات المخطوفة لترمي بهما من عل • كل شيء قد انحدر ، ولم تبق سوى شرارة واحدة لاشعال النار في كل هذا الهشيم المتراكم فيالداخل والخارج • هذا الهشيم من العواطف التي لا تعرف سبيلها ، عواطف تتدفق جياشة من انسانين ، أحكمت الظروف الطوق حول عنقيهما • لا سواهما في كل هذا الوجود ، وهما أول كل هذه الاشياء القابلـة للاحتراق والسقوط • من أين يأتي كل هذا القهر ؟ كل هـذا الظلم ؟ في مدينة كانت ذات يوم أمل المحرومين ، كل المحرومين في هذه المنطقة الساخنة على شاطيء المتوسط الأزرق ، المحرومين من الحرية،والكرامة

والمطاردين من عيون لا حصر لها ، والملاحقين من غير ما سبب ، سوى أنهم أرادوا الحفاظ على حرياتهم •• أين هم الآن ؟ هؤلاء الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ، ليصنعوا في هذا البلد قدرهم من جديد • كل هذا كان وجوداً هشاً لا أساس له • ولم يبق أمام الانسان فوق هـذه البقعة الخضراء الصغيرة سوى أن يحمي نفسه بشتى السبل ، بالسلاح ، بالاختباء • بالبحث عن مغـارات نائية لا يصلها مخلوق • أو هكـذا أصبحت الحياة التي لا مأوى آمناً فيها • أين المفر ؟ والرصاص يقترب• يقترب • يقترب •

همست رنـا :

ــ انهم يموتون •

ــ وأكثر الذين يموتون هم الأبرياء •

ــ الباحثون عن لقمة الخبز ، عن لحظة أمان •

ــ يموتون وأيديهـم تتمسك بخيط الحيـاة الواهـي • خيط العنكبوت الذي يبدو متماسكاً ، لكنه هش الى حد مذهل ، لا يستطيع أن يحمل حتى تلك الفراشة التي تلاحق وهج الرصاص والقنابل ، وفي ظنها أنها تقترب من الحياة •

وأمسكت رنـا بالكتاب الملقى جانبـاً • أمسكته بـين ابهامهـا وسبابتها بقوة • وتركت صفحاته تكـر ، محدثة تلك النسمات عسى تطفىء حريق الدم • كانت عيناها تخطفان تلك العبارات المؤشر عليها ، وتفاجأ كأنها تصف حالات مشابهة لحالتهما معاً • في هذا الممر الذي لا يتسرب اليه النور الا عبر باب الصالون المهشم ، وباب المطبخ المفتوح على أصوات الرصاص والمدافع والصراخ الذي لا يصل الى أذنيها •

ولكنه بالتأكيد يحدث يحدث •• داخل قلوب وصدور ألوف من الناس المحاصرين هنا وهناك • في بيوتهم وأقبيتهم ، وبين جوعهم وعطشهم وخوفهم • وخطفت نظراتها ذلك المقطع من « الجحيم » :
[يرزحان تحت سيطرة فكرة الموت ، كانت فكرة الموت في كل مكان • ذلك أن المخيف ليس الموت ، بل هي فكرة الموت التي تهدم كل نشاط بتلويحها بظلمة أرضية •• فكرة الموت الذي يحيا « أواه ! الا كم تألمت • كم كان علي أن أتألم ! »] وحدقت رنا الى الرجل القريب منها، وزحفت نحوه أكثر ، خيل اليها أنها ستموت وحدها • كانت دائماً تخشى الوحدة • كانت تخاف الموت • تخاف أن يلقى بها في صندوق مسمّر ، وهي بملابس العرس ، ثم يهال عليها التراب ، لكنها قليلا ما فكرت بالموت ، ففي عمرها الربيعي ، وقت للزهر ، ووقت للعطر ،ووقت للصباح ووقت للاغنية • وهي كانت تمسك بالفرح والنور • لا معنى للموت حين يكون المرء في العشرين ، فالموت في العشرين موت مبكر • ما كان يخطر ببالها أنها ستواجه هذا الموت ، بمثل هذه السرعة ، بين الرصاص والقنابل ، في ممر ضيق ، مع رجل غريب • هل ما زال غريباً ؟ لا • انه قريب اليها • يقاومان معاً ، بضعفهما المسكين ، يد الموت الشرسة ، وهي تصفع وجهيهما مع كل طلقة رصاصة أو انفجار قنبلة أو حسيس صاروخ يمر من فوق رأسيهما هادماً الحياة في مكان ما • وفجأة ، وصفحات الكتاب مفتوحة على حضنها ، تلفتت نحو الرجل :

ــ وأنت •• ألا تفكر بالموت ؟

ــ أكنت تفكرين فيه الآن ؟

ــ أفكر فيه ، أفكر في هذا الجحيم الذي في الخارج ، وهذا « الجحيم » الذي في حضني •

ـ كل الناس يفكرون في الموت ، ولكن على نحو مختلف . أنا فكرت في الموت كثيراً ، خصوصاً في قمم سعادتي النادرة ، سعادتي فيك هذه اللحظات تجعلني أفكر بالموت . الحياة ليست كلها سعادة ، الحياة في معظمها ملل وانتظار للحظات السعادة . تلك الحياة السخيفة تجعلني أنسى حتى الموت . انها توقعني في ارتباك التكرار اليومي . اللحظات المتشابهة توقعني في الفراغ . أفكر في الموت عندما تكون سعادتي في قبضة يدي . آنذاك أخاف الموت أن يفاجئني فأفقدها . اسمعي يارنا (وكانت شغوفة في الاستماع اليه) في ظل هـذا الجحيم ، بين الأمس واليوم . بت أفكر فيك أكثر من أي شيء في الوجود . لقد دخلنا أنا وأنت صميم اللعبة . لعبة القدر ، الذي في قليل من الأحيان يتقنهـا ، كما أتقنها الآن،ومعنا بالذات : طرقة عنيفة على الباب ، واذا بك أنت . داخل هذا البيت . كيف حدث هذا ؟ فوجئت بك . رأيتك من خلال عين الباب . تلك المرأة المذعورة ، مثل غزالة تطاردهـا أسود الغابة . ترددت ثواني ، كدت أرتد الى الداخـل . أترك لك فرصة أن تطرقي باب غيري . كدت أفعل والله . ولكن ما أدري أية قوة مذهلة أعادتني الى الباب . افتحه وأشدك الى الداخل . وهكذا بدأت خيوط اللعبة : متزوجة ، ولك ابنة ، تحبين زوجك ، تحبين ابنتك . وأنا أعيش قصة حب مع امرأة غيرك . أنتظر الفرصة لأتزوجها . فاذا بحرب تقع في البلد الواحـد ، وبـين أسرة وأسرة ، وحي وآخـر ، وأنت في الطريق الى المستشفى لرؤية أختك التي وضعت ، وعوض أن تكوني معها الآن . ها أنت في بيت رجل غريب . لو تأخرت المعركة ثواني ، لكنت بالتأكيد الآن في وضع غير هذا الوضع ، في المستشفى عند أختك ، أو في بيت غريب آخر . أو عدت من حيث أتيت . لكن اللعبة هذه المرة يجب أن

تحكم جيداً ، قام بهـا القدر وهـو بكامل وعيه ، وفي اشراقات ذهنه الاولى • وهاهو الآن يشهد ويتسلى ويضحك ، ويتفرج مـاذا سأفعل أنا ، ماذا ستفعلين أنت ؟ غريبة هي الحياة •

صمت الرجل ، وبدا لرنـا كأنه يلهث ، وهي كانت تستمع اليه ، لا تصدق مـا تسمـع ، وتتمنى أن يستمر ، وراجعت في ذهنهـا تلك العبارات التي تفوه بها على عجل ، وبدت عبارة واحدة مضيئةمتمسكة برأسها وصدرها وقلبها « سعادتي فيك هذه اللحظات تجعلني أفكـر بالموت » وكادت تلتفت نحوه وتغمره من جديـد • لولا أنه فاجأهـا بالحديث مرة أخرى :

ـــ انني حريص عليك • أتصدقين يارنا • أتمنى هذه اللحظات أن تطول الحالة التي نحن فيها أطول ما يمكن لها • اننا على الأقل لا نفكر بوضعنا الاجتماعي • لا اذا كنت مسيحية ولا اذا كنت مسلما • علـى الأقل ماذا يحدث لك أنت ؟ اذ أحبك وأنت امرأة متزوجة ولك ابنة ، ومن دين لا طلاق فيه ، على الأقل كل هذه الأمور المعقدة ستظل بعيدة الآن ، ونحيا سعادتنا بـين لحظة الموت ولحظة الموت الأخرى ، نسرق هذه الحياة ، نخطفها خطفاً بين رصاص اليمين ورصاص اليسار ، تحت ظل الصواريخ التي تزعق والهواوين التي تهدم كل شيء • أنا في حالة سعيدة رغم كل هذا الغبار والخوف • حالة من الوجدان الحاضر دون ماض ولا مستقبل • حالة أن نحيا معاً اللحظة تلو اللحظة • صحيح ان الموت قد يكون أقرب منا قرب الحاجب الى العين •• لكننا ونحن ننتظره ، يجب أن نستبسل في إبقاء الوضع على ما نحن فيه •

توقف الرجل عن الحديث ، أشعل لفافـة تبغ بسرعة ، ثم التفت نحو رنـا :

ـ لا أدري بماذا تفكرين هذه اللحظات • ربما أنت في واد وأنا في واد ، ولكن نحن معاً في هذا الممر الضيق ، شئنا أم أبينا : أنت صورة الحياة التي أرى نفسي فيها ، كما أنا صورة الحياة التي ترين فيها نفسك ، وكلانا حريص في الحفاظ على صورة حياته • أخاف أن تموتي أخاف • ولكن اذا كان علي أن أموت ، يجب أن أجد طريقة ما من أجل حياتك •

وكان سيستمر ، لولا أن أنامل رنا أسرعت الى فمه :

ـ هس •• انتظر • اتركني لحظة لأتكلم • اما أن نموت معاً أو نحيا معاً • أريد أن أقول لك شيئاً مهماً ، لعلك خشيت أن أكون في واد غير واديك • لا ، أنا معك هذه اللحظات • وأنت حميتني من الموت والخوف • وأنا أيضا ، صدقني ، صرت أتمنى أن تطول هذه الحالة التي نحن فيها ، لأنني مثلك أخشى تلك الارتباطات التي تشدنا كلاً في اتجاه معاكس • انني لا أريد المستقبل ، لا ، لم أعد أريده • أريد أن أبقى معك وكفى ، أبقى معك وحدك ، في هذا الممر الضيق ذاته • على هذه الفرشة الاسفنجية ذاتها ، في هذه الزاوية • أريد أن أبقى معك الى الأبد من غير أية حساسية تجاه الأشياء الأخرى • صدقني •

كانت أنفاسه المتوترة تلامس أناملها • رفع يدها عن فمه ووسدها صدره ، ثم أشار الى مكان ما في الزاوية ، وقال ضاحكاً :

ـ هل ترين شيئاً ؟

وأجالت نظراتها في المكان ، ثم قالت :

ـ لا •• أم انك تشير الى ثقوب الرصاص في الجدار ؟

ـ بين تلك الثقوب • في هذه الأمكنة السليمة الضيقة جداً •
ـ آه •• ماذا بهـا ؟
ـ انه القدر المسرور ، المبتسم ، المتباهي بنجاح لعبته الجديدة ، لقد نجحت هذه المرة أكثر من أية لعبة أخرى لعبها من قبل وسيلعبها من بعد •

ضحكت رنا ، فيما أخذ الرجل يغمرها بصدره •

- ١٣ -

كانت أيضاً قد دخلت ليلة أخرى شديدة الوطء على رنا ، وبالتأكيد على محمود ، رنا كانت تتقلب على فراشها بحرقة ورعب دائم ، والرجل الى الجانب الآخـر من الممـر يحدق الى فراغ السقف المظلـم ، عيناه واضحتا الحركة لرنا التي تسترق النظرات اليه من بين ساعدهـا الذي تغطي به جزءاً من وجهها ، وهي تتساءل باستمرار : هل تعيش ؟ هـل تعود الى الحياة ؟ ثم تحاول طرد هـذه التساؤلات من ذهنهـا ، لأن اطمئناناً غريباً ، رغـم الهزات المرعبة مع كل انفجار وكل طلقة قريبة ، يعشش في صدرها الآن . اطمئنان لم تكن تعرفه من قبل ، ما أحست به أبداً . وفيما كانت الصواريخ والانفجارات في الخارج ، يتخللهـا الرصاص ، تهز أركان الممر ، كان يخطر في بال رنا أشياء لا حصر لها . هل هذه الحالة الشاذة هي التي جذبتها الى الرجل الغريب وبزوالهـا يزول اعجابها به ؟ وانطرحت الحياة أمامها منذ ولادتها الاولى ، خطرت لها خواطر ساذجة وكثيرة : لو التقى رجل وحيد امرأة وحيدة في غابة ؟ ماذا يحدث ؟ يحدث أن يرى كل منهما في الآخر صنوه . هذا أكيد . لكن لو جاءت إمرأة مختلفة ، أكثر جمالا من الأولى ، ملفتة للنظر أكثر . ماذا يكون موقف الرجـل ؟ والعكس اذا حدث مـاذا يكون موقف

المرأة ؟ وهالتها النتيجة • أيمكن هذا ؟ أيمكن لهذا الرجل أن يتخلى عنها اذا عادت الأوضاع طبيعية ، وهي بالتالي أيمكن أن تتركه وتعود الى زوجهـا وابنتها ، وتذكرت ميشيل بكل شيء فيه ، ميشيل الذي أحبته وكانت فرحتها به لا تقدر عندما تزوجا •• بل اعتقدت ذلك الحين أنها ملكت الدنيا ، وان سعادتها ستكبر مع الأيام ، وستكبر حتى لا يسعها العالم •• كيف نسيته خلال اليومين الماضيين ، وكأنه ليس زوجها ولا هي زوجته ؟ وعضت ، رنا ، فجـأة ، أناملهـا • وكاد حديثها الى نفسها يعلو صوته هذه اللحظات ، لكنها عاودت الهمس داخل ذاتهـا « يا إلهي •• كيف تخليت عنك ياميشيل ؟ أنت الآن الـذي تتحـرق شوقاً لرؤيتي • لعلك أقمت الدنيا بحثاً عني ، لعلك وضعت صورتي في الصحف تخصص مكافأة لمن يعرف شيئا عني • كالمجنون تبحث هنا وهناك ويدك على قلبك ، لعلك هـذه اللحظة تنظر الى هيلدا وهـي نائمة ، وتبكي •• تظنني قتلت • تخاف أن تذهب الى الكرنتينا تبحث عن جثتي •• أم أنك ذهبت فعلا ؟ » •

رفعت رنا رأسها فجأة ، اذ تصورت كيف سيكون اللقاء بينها وبين ميشيل اذا خرجت حية من هذا الجحيم • ستبكي وهي تدفن رأسهـا في صدره العريض ، وستهطل دموعه فرحاً وهو يأخذها بين ذراعيه غير مصدق أنها ما زالت حية ، وان المرأة التي بين يديه ، هي رنا زوجته وأم طفلته • وسيتألم عندمـا ينتبه الى الاعياء الذي أصاب وجههـا والى ملابسها التي خرجت بها من البيت وما زالت على جسدها •

وراحت رنا تفكر بالطريقة التي ستحدثه بهـا عن الأحـداث التي مرت بها ، وعن هذا الرجل النبيل الذي فتح لها بيته واستقبلها،وأطعمها

وحماها ، ولكن ألن يسأل ميشيل « ماذا فعلتما كل هــذه الأيام ؟ » ماذا ستقول له ؟ واذا لــم يسأل •• ألن يبقى الشك الى الأبــد يمطر سؤالا وراء سؤال من عينيه « ماذا حدث بينكما ؟ » وقالت رنا لنفسها: سأقول لــه الحقيقة • سأصارحه بكل شيء • واذا كان يحبني سيقدر ظروفي وسيغفر لي « واذا لم يغفر ماذا ستكون النتيجة ؟ » وأحست بغصة في حلقها • غصة شديدة ورجفاناً في القلب « الحق انني تماديت في علاقتي بهذا الرجل الغريب • هذا الرجل الذي عبر لي في الصباح عن أنانية عندما تمنى أن نبقى على هــذه الحال •• أيمكن أن يكون أنانياً إلى هذا الحد ؟ أنا أيضاً أما فكرت بنفس الأسلوب • أم ان هذا الضغط الخارجي هــو الذي يفقد الانسان توازنه العقلي ؟ مواجهــة الموت في كل لحظة تجعل الانسان في غير مــا حس سليم • أم هــي السعادة حقاً •• في سبيل سعادتي لا يهمني شقاء الآخرين • هو أيضاً في سبيل سعادته لا يهمه شقاء الآخرين ، هراء كــل الأفكار والمبادىء والقيم هراء • والواقع هو المحك الأساسي ، وما أندر أن يواجهالناس ما أنا أواجه • وما يواجه هذا الرجل في الطرف الآخــر المحــدق الى السقف • ماذا يفكر ؟ هل يفكر مثلي ؟•• هل يعاني من مراجعةضمير ؟ ويستغرب كما استغربت هذا التمادي في العلاقة مع إمرأة غريبة ، من غير دينه ، متزوجة ، ولها ابنة ، ماذا يقول لتلك المرأة التي تنتظره الآن قلقة ؟ ربما فعلت ما فعله ميشيل في البحث عنه • في سؤال المستشفيات ان كان جريحاً • ان كان جثة ، بين ركــام الجرحى والقتلى الآخرين • هل اعتقدت انها ستنساه ، وتغيب عنه ، ثم تلتقي بغيره ، تحبهوتتزوج منه وتنجب له أولاداً ، ولا يبقى محمود في ذهنهــا سوى طيف شبح تنسى تفاصيله مع مرور الأيام ؟

وكان قلب رنا يشتد وجيبه ، كلما تفتح ذهنها على هذه الأفكار ، التي راحت تكر على مشاعرها كراً مباشراً وسريعاً ومتدفقاً كشلال ، حتى انها هذه اللحظة تمنت من جديد انلا تخرج حية منهذا الجحيم .

وتلفتت من جديد نحو محمود ، خيّل اليها أنه مغمض العينين ، وان تنفسه المضطرب يخترق أسماعها رغم صراخ الحرب الذي لم يهدأ وكادت تناديه ، لعله ينقذها من أفكارها المشوشة ، كادت توقظهلتسأله بماذا يفكر ، وماذا ينتظر من مصير ؟ لكنهــا تراجعت وانطوت علــى نفسها ، تحــاول الهرب الى النوم . الا أن النوم عصي . ظلت متيقظة الأعصاب ، متوترة ، تدور بعينيها داخل محجريهما دورات عنيفة ،لعلها تتعب وتنام . تفرك يديها ، أصابعها ، جبينها . الا أن يقظتها تشتد . فآثرت الانصات جيداً الى أصوات الرصاص والمدافع والصواريخ .. أصاخت السمع . أصاخت وظلت تصغي بشدة .. ثم . ثم لا تدري كيف أغفت ؟

- ١٤ -

جاء الصباح ، ربما هو صباح آخر ، الخامس ، السادس • وهل هو الصباح ؟ أم هي الظهيرة ؟ يموت الوقت ولا يموت القتل•الرصاص والقنابل والصواريخ ، كلها تصرخ ، لا يهمها الوقت ، لا يهمهـا الليل والنهـار • اذا كانوا في النهـار يعرفون كيف يوجهون رصاصهـم وصواريخهم ، في الليل هل يعرفون ؟ أم انهـا الحرب القذرة التي لا تفرق بين ليل ونهار ، بين بريء ومجرم ، بين من يحمل السلاح ومن لا يحمله ، بين من يبحث عن رغيف خبز ليطعم به عياله ، ومن يبحث عن انسان ليطلق الرصاص على رأسه • ورنا التي تلوب كل هذه الأفكار في ذهنها ، ملتصقة الآن الى الجدار ، ذقنها على ركبتيها ، ويداها تعانقان قدميها • وتراقب الرجل الذي يصنع طعاماً من معلبات باردة • لا تعرف ماذا يصنع ؟ كان أبعدها عن المطبخ ، وطلب منها أن تستريح • كانت جائعة ، قالت له انها جائعة • كم مـر من الوقت وهي بدون طعـام • أصبحت لا تتذكر الطعام إلا وهي في حالة الجوع الشديد • هو أيضاً كان ينسى • انشغالهما بالموت المترقب ، ينسيهما أشياء كثيرة •• أمـا نسيت أشياء كثيرة وهي في هذا الممر الضيق من هذا البيت الغريب ؟ الى متى ستظل هنـا ؟ وأحست رنـا بشوق يتآكلهـا لكل الحيـاة ،

لكل الناس الذين عرفتهم ، حتى لصديقات الطفولة ، ماذا حدث لهن ؟

وعاد الرجل يحمل بين يديه الطعام ، ووضعه على الكرسي الواطيء لحم مجفف مختلف وقليل من الخبز الجاف المبلل . لم يكن يهمها . شرعت تأكل ، وكذلك الرجل . أكلت بشراهة ، وكان الرجل يأكل مثلها ، الى أن أكلا كل شيء ، قال الرجل :

ــ أما زلت جائعة ؟

ــ لا .. لقد اكتفيت .. أشكرك ..

ــ يوجد طعام . لا تخافي .. لدينا معلبات كثيرة .

ــ لست خائفة . ولكن اكتفيت فعلا .

صمتا ، رفع الطعام ، وعاد اليها . آخر لفافاته يحملها بكثير من الحرص ، أخرج واحدة . أشعلها ، وأخذ يمجها بشهية . هتفت رنا :

ــ ماذا تتصور يحدث في الخارج ؟

ــ انهم ينتحرون .

ــ أما لهذا الاقتتال من آخر ؟

ــ انها مؤامرة تنسج خيوطها . قد ينتصر عليها حق الوطن أن يعيش سالما .. وقد تنتصر هي فيتوزع الوطن أشلاء .

ولجمهما معا انفجار قريب اهتز له باب الصالون ، وتساقط ما تبقى عليه من زجاج . ثم أعقبه انفجار آخر ، ثم ثالث ، فرابع . وامتلأ الممر بالدخان ، أسرع الرجال صوب الصالون ، فاذا بالدخان الكثيف يملأ جنباته ، وسعل بشدة ، الا أنه أدرك أن البناء المجاور هو الذي يحترق .. عاد صارخاً برنا :

ــ أسرعي •• أسرعي ، علينا بترك المنزل كيف ما كان • الحريق قد يمتد اليه ••

وقفت رنا مذعورة ثم صاحت :

ــ ماذا نفعل ؟

ــ سنخرج من نافذة المطبخ •• سنلجأ الى بناية أخرى •

ــ سنهرب من الحريق الى الرصاص •• كيف ؟

ــ سنحاول الخروج من باب البناية الرئيسي •

واقتربا من الباب ، ليزيحا المكتبة • الا أن الدخان كان قد خفت كثافته ، فانتظرا لحظات ، فاذا بكل شيء يعود طبيعيا • قال :

ــ ربما أطفأوا الحريق ؟

ــ لم أسمع صوتا لسيارات الاطفاء •

ــ لعلهم سكان البناية أنفسهم • أو قد يكون الحريق قد انطفأ من تلقاء نفسه •

وانتبها الى زخات شديدة من الرصاص تصطدم بالجدران القريبة، فعادا الى مكانهما داخل الممر • كانت رنا تلهث ، وكان الرجل قلقاً يفرك بين سبابته وإبهامه بقايا لفافته •• ثم شيئا فشيئا استعادا هدوءهما قال :

ــ كدنا نذهب ضحية الحريق •

ــ وكذلك ضحية الرصاص ، لو خرجنا ، لاقتنصونا •

ــ ولكن مع الحريق لا أمل لنا • أما في الخروج ، ولو تحت وابل الرصاص ، يبقى لنا بصيص أمل •

وصمتا ••

كانت تراقبه ، ولمحته يراقبها أيضا خفية • استعانت بالكتاب الملقى جانبا • ورفعته براحتيها ، قربته من وجهها • وفتحته • دهشت من جديد ، كأنها تفتح الصفحات على حالتها النفسية • هناك مقطع كبير مؤشر عليه مع عبارة « هائل جداً » أخذت تقرأ : [إنني لأذكر ذات يوم أثناء الحرب • كنا مجتمعين حول شخص يحتضر • لم يكن أحد يعرفه كان قد وجد بين حطام سيارة اسعاف مضروبة بالقنابل (عن عمد أولا، هذا لا يبدل في الأمر شيئاً !) كان وجهه مشوهاً • ولم نكن نعرف مكانه : كان ينتمي الى أحد الجيشين • هذا كل ما يمكننا قوله ، كان يئن ، يبكي ، يعول ، يطلق صرخات رهيبة • كنا نحاول أن نلتقط من احتضاره كلمة ، لهجة ، قد تدلنا على جنسيته • لم نستطع • لم نستطع أن نسمع شيئاً واضحاً ينبجس من شبه الوجه الذي كان يتلوى ألما على النقالة • وتبعناه بالأعين وأصغينا اليه الى أن سكت ، وحين مات وتوقفنا عن الارتعاد ـ رأيت للحظة وفهمت ، فهمت في أحشائي ان الانسان يمت بجذوره الى الانسان أكثر مما يمت به الى مواطنيه المبهمين فهمت أن كل عبارات البغضاء والتمرد ضد الجيش ، وان كل الشتائم الموجهة الى العلم ، وان كل النداءات المعادية للنزعة الوطنية يرن صداها في المثل الأعلى والجمال] •

كانت رنا تقرأ هذه السطور بشغف وهي ترتعد ، وما ان وصلت الى كلمة : « والجمال » حتى قدمت الكتاب الى الرجل الذي كان صامتاً يراقبها :

ـ خذ ، إقرأ ، حيث وضعت أنت عبارتك « هائل جداً » •

وأخذ الكتاب :

ـ آه •• أذكر •• أذكر • كأن هذا الوصف ينطبق على أوضاعنا في أكثر من معنى • هؤلاء الذين يتقاتلون في الخارج يعبرون عن كرههم للجمال • فما أبشع أن يقتل الانسان أخاه الانسان • أقول لك بكل صراحة ، انها ليست حرب مبادىء ، لو كانت حرب مبادىء لكان فيها نصر وهزيمة • لكنها حرب قذرة ، همها فقط التدمير •• التدمير •• التدمير •

وتحمست رنا :

ـ انهم يهدمون معالم الحضارة •• أهم حقاً الى هذا الحد أعداء الجمال ؟

ـ بالتأكيد •• أعداء الجمال دون أن يشعروا • الآن لا يدركون• الآن يمارسون لذة القتل • سحر السلاح يفعل فعله • لكنهم غداً أو بعد غد سيواجهون أنفسهم من جديد • وسيكتشفون كم كانوا جهلة• وكم كانوا قبيحين في الأسلوب الذي افتروا فيه على الآخرين • غداً أو بعد غد عندما يجيء حساب النفس ، سيرى كل واحد فيهم انه خسر أكثر مما كسب ، بل لعله خسر ولم يكسب شيئاً •

ـ هل أنت مؤمن بهذا الكلام ؟ هل تنطق وتعترف أن لابد للضمير أن يستيقظ • هل تعتقد أن هؤلاء الوالغين في الدم حتى رقابهم، سيكون لهم ضمائر •• هل تؤمن بذلك •• هل تؤمن ؟

كان الرجل ، اذ صمت الآن ، يرتجف ، بل أطاح بالكتاب بعيداً • عيناه حادتان • لأول مرة تلمح رنا في وجه الرجل غضباً ، غضباً جعله يرتجف من رأسه الى أخمص قدميه ، وكان قد وقف وأخذ يذرع الممر بخطواته القلقة ، صاحت به :

ـ احذر الاقتراب من باب الصالون •

ارتد الى الوراء • كان يريد أن يشغل نفسه بشيء ما • وخطر في بالها أن تسأله عن انتمائه ، الى أي من الفريقين ينتمي • خشيت أن يكون مخالفا لرأيها ، هي تحب هذا البلد • انه وطنها الذي يحترق ، وكل من يسيء اليه ، هو عدوها ، وصاحت فجأة بالرجل :

ـ محمود •• وأنت من داخل ضميرك •• مع من ؟
ـ اسمعي •• أريد أن أقول لك شيئاً •• معظم الذين يتقاتلون في الخارج لهم مثل عليا يدافعون عنهـا ، أنا لا أنكر ذلك •• اللبناني المسلم واللبناني المسيحي •• بل أوضح أكثر ، انهم مضللون • ومن خلال ضلالهم يخيل لهم أنهم يدافعون عن مثل عليا • اذا استمرت هذه الحرب ، لن أقف مكتوف اليدين • سأخرج • سأحمل السلاح ضد كل المتآمرين • سأقاتل منتصراً للفقير ، ومنتصراً للمشردين الذين فرضت عليهم حياة المخيمات وحياة الفزع من عدو قد يبطش بهم في أية لحظة ، سأقاتل ضد تقسيم هذا البلد •

توقف • ولم تتابع رنا الحوار ، كانت هي أيضا قد اشتعلت بالغضب وتمنت هذه اللحظة ، لو كانت في مكان آخـر تستطيع فيه أن تتحرك لجمعت كل من تعرف من الناس ولطلبت منهم أن يجمعوا كل من يعرفون • ويدخلوا في مظاهرة مرصوصة بين المتقاتلين عسى يتوقفون عن هـذا الجنون • لكن صوت الرصاص في الخارج ما زال يشاركهما الحـوار على طريقته ، يقاطع أفكارهما ، كما يقاطع أفكار كل الخائفين المنصتين أمثالها وأمثال رفيقها في هذا البيت التعس • يدخـل غرف نومهـم • يخترق صدورهم ورؤوسهم بلا رحمـة أو شفقة ، يتصيدهم كما كان

بعضهم يتصيد عصافيره في رحلة صيد • انها وأمثالهما المنزوون في الممرات والأقبية وخلف الجدران السميكة ينتظرون لحظة الفرج ، لحظة تنفذ فيها هذه الذخيرة • أما تنفد هذه الذخيرة ؟ من يمد بها الأطراف المتقاتلة • كيف ؟ من يدفع الثمن ؟ وتذكرت رنا « المؤامرة »• حقاً هي مؤامرة تعصف بالبلد ، لتهدم كل شيء فيه ، فمن هم وقود هذه المؤامرة •• من هم ؟

- ١٥ -

سألت رنـا الرجل :

ــ أما يبحث المتقاتلون عن حل ؟

ــ هناك من يزين لكل فئة مجداً ما • حل يجد فيه مصلحته هو دون الآخرين •

ــ أيتقاسمون البلد ؟

وانتفض الرجل :

ــ اياك أن تلفظي هذا ثانية ، وأنت وأنا والأكثرية الساحقة يجب أن نمنع ذلك بكل ما نملك ، هم بالطبع يريدون ذلك • ولكن تصوري بلـداً بعشرة آلاف كيلو متر مربع ، ثم نقسمه الى دويلات • الشعوب الأخرى تبحث عن الوحدة ، ونحن هنا نقاتل من أجل التفرقة • نحن في الأصل جـزء من أمـة عظيمة تمتد أرضها من المحيط الى الخليج • ألا يكفينا مـا نحن عليه الآن من تفرقـة ودويـلات يستهتر بهـا العدو ويستضعفها ، لنقسم هذا البلد أيضاً الى دويلات ؟ تأملي ذلك •

توقف الرجل لحظة • كأنه تذكر شيئا ثم تابع :

ــ إسمعي يارنا ، أنا لا أشك بوجود فريق ثالث هو الذي يؤجج،

هو الذي يضع الوقود ، هو الذي يشعل النار ، فريق ينتمي الى العدو ، طابور خامس ، جهاز مخابرات وعملاء • هناك من يحركهم داخل الحدود أو خارجها • يستغلون بعض التجاوزات التي حدثت وتحدث ، يستغلون آراء أقلية • يستغلون مطالب فئات معينة ، وهم يضخمون كل شيء في سبيل هدفين رئيسيين يشكلان خطراً عليهم : الهدف الأول ضرب الصيغة الديموقراطية التي بني عليها نظامنا السياسي ، والهدف الثاني ضرب الثورة الفلسطينية العظيمة التي تنادي عالميا بصيغة مشابهة في أرض الوطن السليب ، وهي مناداة في منتهى السمو الانساني •

ــ أما من عقل يفكر كما تفكر أنت ؟

ــ بالتأكيد •• هناك مثل هذه الأفكار في كل الأطراف المتقاتلة ، الا أن الفريق الثالث يعمل من داخل صفوف الجميع ويخرب كل شيء •• مالم يجتث هذا الفريق نهائياً ومن دون تلكؤ • سنظل نعيش رعب جولات وجولات مشابهة ، الى أن يتهدم كل البلد على كل الناس الذين يعيشون فوق أرضه الطاهرة •

ــ ما أقرأ •• ولعلك قرأت ، كذلك سمعت ما أسمع •• ان هنالك مطالب سياسية واجتماعية عدة ومحقة لفريق • كذلك مطالب من وجهة نظر ثانية لفريق آخر •

ــ لا بأس •• لا بأس ، كل هذا وارد ، وارد مناقشته ، وارد الجدل فيه في الطرق الديموقراطية المألوفة ، ومن دون رصاص ومدافع وقتل ، القتل يغذي الأحقاد • القتل يولد الكراهية ، ومتى ساد الحقد في المجتمع ،وسادت الكراهية ، فاقرأي على هذا المجتمع السلام • انه ينهار من الداخل ، ويتفتت ، ثم تسود شريعة الغاب • الحياة للقوي ،

الحياة للذي يملك أسلحة أشد تدمـيراً وأشد قتلاً وأشد فتكاً مـن الآخرين • وما أسوأ أن تصل بنا الحياة الى حـد ، انك تمشين مـن الجدار الى الجـدار قفزاً • وبحـذر وخوف • من أن تطالك رصاصة قناص لا تعرفينه ولا يعرفك •

واتبهت رنا الى أن هدوءاً خيم في الخارج :

ـ اسمع •• كأنهم توقفوا ؟

وأنصت الرجل :

ـ أرجو أن يحركهم ضميرهم •• أجل ، هناك هدوء •

وأنصتا معاً واتنبها الى شيء مهم ، صمت صمت صمت ، لا حركة لانسان لا حركة لصفقة جناح ، وهتفت رنا :

ـ يا الهي •• لقد نسينا شكل الهدوء •• أهكذا كان الهدوء قبل أن ينشب القتال ؟

ـ هذا هدوء الموت • كأن الموت قـد مـر فوق رؤوس الجميع كالريح وأسكتهم •

ـ والله توقفوا يامحمود •• توقفوا •

وبدا الرجل لرنا ، يبتسم للمرة الاولى منذ زمن بعيد ، بل أخـذ يبحث عن علبة لفائفه • ثم اكتشف أنها فارغة •

وضحكت رنا :

ـ الحمد لله •• الحمد لله • لقد انتهت لفافاتك مع انتهاء القتال، ليتك فقدتها قبل الآن •• قبل الآن بزمن أطول •

واقتربا معاً من الصالون ، ثم دخلاه • كان الزجاج متناثراً في كل أطرافه • ومع أن الجـو في الخـارج كان متلبداً بضباب أسود • لكن

الوقت كان يسبق الغروب بقليل . ولأول مرة راحت رنا تتأمل هـذا البيت الصغير ، صالونه بسيط وأنيق في آن ، بضعة مقاعد هنا وهناك. مكتبة أخرى مكدسة بالكتب ، لوحتان ضخمتان في الجداريين المتقابلين ، ثم لوحات عدة صغيرة . اقتربا من النافذة في محاولة للاطلال على الشارع . وارتدا بذعر الى الوراء ، لمحت رنا جثثا ملقاة ، وحرائق وسيارات محطمة ، التفتت نحو الرجل . كان مكفهر الوجه يكز على أسنانه . كادت تقول شيئاً . لكنه ابتدرها :

ــ انها ساحة حرب .

ــ لا أحد . لا أحد . كل شيء ساكن .

ــ سننتظر قليلاً .. لن نخرج قبل أن نسمع حركة الناس .

والتصق كل منهما بطرف معاكس للنافذة،ظهرهما للجدار ووجهاهما الى الداخل ، تابعت رنا نظراتها فيما حولهـا ، هناك في الزاوية طاولة طعام صغيرة ، مجللة برداء أحمر مطرز ، ثم خزانة صغيرة ذات أدراج ، وعلى ظهرها آلة ستيريو وعلى جانبيها مذياعان ، وفي طرف الستيريو ، صورة مؤطرة ، وجذبتها الصورة ، تشاغلت عنها قليلا ، ثم تقدمت منها تبعها الرجل . قالت وهي تتظاهر بالتلفت يمنة ويسرة :

ــ بيتك جميل .

ــ أشكرك .. أما ترينه في هـذه الحالة القذرة ؟. لقد سبقتك الحرب اليه .

ــ لكنه ظل محافظاً على جماله وبساطته وأناقته . كأنه ليس بيت رجل يعيش لوحده . ان فيه لمسات امرأة كانت تزوره كل يوم .

ولم يجب الرجل ، وكانت رنـا قد اقتربت من الصورة ، فأشارت اليهـا :

ـ لعلها هذه هي المرأة ؟

تشاغل الرجل أيضاً بشيء ولم يجب ، تأملت رنا الصورة « امرأة جميلة تقاربها في السن ، شعرها الأسود منسدل على كتفيها ، وفي‌عينيها سعادة وسؤال وفرح » وتذكرت رنا وجهها « أهي أجمل ؟ لا ، هي الأجمل . التي في الصورة جميلة ، فيهـا غرابة وجاذبية ، وفي شفتيها ابتسامة مغرية . انها دعوة سخية لرجل ما . لكل الرجال . أليست‌هي أيضاً بمثل هذه الحالة ؟ هي أيضاً كذلك .. » وتذكرت صوراً عـدة التقطت لها . صورتها على طاولة ميشيل . أليست مشابهة لهذه‌الصورة في ابتسامتها ، في حركة عينيها ، في تسريحة شعرهـا . غريب . تشابه غريب . الا أنها هي الأجمل . بل كادت رنـا تهتف أمـام الصورة : « أنا أجمل منك .. أجمل منك في كل شيء » ولكنها كتمت صيحتها بسرعة . وفي هذا الوضع الذي هـي فيه .. هـي الحياة والصورة لا شيء ، هي التي يخاطبها صاحب هذا البيت ، يناقشها ، يصنع لها الطعام، يحميها ، يخاف عليها ، يدافع عنها . والصورة لا شيء . هي والرجل في الممر ، هي ستبقى كل الحياة في الممر ، بين الخوف والرجاء ؟ الضوء يتسلل والشمس لا تعرف طريقها اليه ؟ هي هنا في هـذا الممـر عوض صاحبة الصورة التي من المفروض أن تكون مكانهـا الآن . الصورة وحدها . في زاوية هذا الصالون الممزق أقرب الى الرصاص . أقرب الى الموت . أقرب الى هذا الشارع الذي يستكين بذل خارج هـذه النافذة ، تحت وطأة جثثه الميتة والمحترقة . وبقايـا الرصاص الفارغ والقنابل المتفجرة . لا فرق بين الصورة والموت . لا فرق . أما هي .

رنا التي تتحرك بكل جسدها الساخن،بكل حركاتها الحمامة والعصفور والغزال ، بكل صوتها الرقيق المبحوح الشديد الجاذبية • صوتها الذي يغازله كل الرجال ، من ميشيل ، الى أصحابه الى أزواج صاحباتها • الى كل الذين تصادفهم من الرجال • هي الآن الحياة الحقيقية • وهذه الصورة جماد • مثلها مثل هذا الجدار ، مثل الخزانة التي تتربع عليها• ومثل الستيريو الذي لا كهرباء فيه • ومثل هذين المذياعين الصامتين• هناك ، في مكان ما ، حيث هي بحياتها ، لا تعني شيئاً هذه اللحظات بالذات • انها كلها خارج البيت ، وهي الآن حياة هذا البيت • وكادت رنا تهتف ثانية « أهذه خطيئتك ؟ » لكنها لم تقل ، وتلفتت نحو الرجل، فوجئت به ملاصقاً لها ، يتأملها بشغف ، واكتشفت في عينيه أنها هي حقاً الحياة • وما عداها يغلفه الموت كتلك الجثث الملقاة على قارعة الطريق • فقدت خفقان القلب وفقدت الدم في الشرايين وفقدت الصوت والحركة • وأشارت رنا الى الغرفة الوحيدة • فبادرها الرجل : انها غرفة النوم • تقدمت من الباب وفتحته ، فهتفت مذعورة ، كانت الغرفة قد طالتها ألسنة النار ، كل ما فيها شوهته النار • بقايا قليلة ينز منها الدخان كما تنز الدماء من جثة نزفت طويلا • وقال الرجل :

ـ اذن •• الحريق الذي خشينا منه • كان في هذه الغرفة •

قالت رنا :

ـ كيف انطفأت النار من تلقاء نفسها • كيف لم تمتد الى بقية البيت •

لا أدري •• كنت قد حسبتها من البناء المجاور •

ورنا ، تلك اللحظات ، اذ استعادت هدوءها قليلا ، أحست أنها

أكثر تمسكاً بالحيـاة • ولو أن الموت كان يريدهمـا بالفعل لامتدت اليهما النار دون أن يقدرا على فعل شيء :

ـ لقد كتبت لنا حياة جديدة •

ـ لم تحن ساعتنا بعد •

ـ اننا في أول العمر • والموت أحيانا يكون عاقلا • يترك لأمثالنا فرصـة •

وتساءل الرجل في مـرارة :

ـ أهو حقاً يترك لنا فرصة •• أسنحيا يارنا ؟

ودهشت لانهيار الرجل ، وأحست هذه اللحظة أنها أقوى منهألف مـرة • أمسكت بيده وصاحت به وهي تشير بيدهـا الأخرى خارج النافـذة :

ـ أنظر •• أما رأيت الموت هنا • علـى الرصيف • في البنايات الأخرى ، في غرفة نومك بالذات ، وقبل أيام كان على مرأى منا عندما خرجنا من المطبخ نبحث عن طريق للنجاة ، غازلنا ، تطاير رصاصه فوق رؤوسنا ، وهانحن ما زلنا أحياء • ما زال قلبي ينبض • ما زال قلبك ينبض • لا •• الموت أحياناً عاقل • وهـو يحمي العقلاء أمثالنا • لـم نخرج الى قارعة الطريق لنتحداه بصدورنا • الموت يتعامل مع الذين يواجهونه • يخرجون اليه ، يتحدونه ، يناورون من خلفه ومن أمامه •

ورفع الرجل يده معترضاً :

ـ اننا نقع في التناقض يارنـا • نفسر الامور من خـلال حالاتنا النفسية ، في خصوص الموت بالذات ، نكذب على أنفسنا ، ونصدق هـذه الكذبة • الموت حين يجيء لا يعرف أحداً ، انه وحش جـائع

باستمرار ، وحياة الناس زاده الدائم • الموت لا ينام • في كــل لحظة يمضغ روح انسان ، وهو يرمي يده على قلوب الناس يميناً ويساراً • لا يفرق بين كبير وصغير ، بين حقير وملك ، بين فقير وغني ، الكل عنده سواسية ، والكل طعام له منذ بدء الخليقة ، اننا ، أنــا وأنت ، وكــل الناس ، نفسر الموت تفسيرات مختلفة تأتي دائماً وليدة اللحظات التي نحن فيهــا •

وتهمس رنــا :

ــ صحيح •• صحيح • ولكن في كثير من الاحيان تستطيع حماية نفسك من الموت •• والا •• لماذا نحن مختبئون منه الآن ؟

ولم يجب الرجل • هذه المرة أغرق عينيه في عينيهــا ، كأنه يريــد الهرب من هذا الحديث التعس • وكادت تقترب منه • الا أن الجحيم اشتعل فجأة في الخارج • فدفع الرجل رنا أمامه وركضا نحو الممر •

- ١٦ -

باتت الأصوات قريبة جداً ، في كل قنبلة يهتز لها قلب رنا ، واشتد صراخ الرصاص من رشاشات مختلفة ، خيل لهـا أن هجوماً كبيراً يقع على المنطقة ، وان المسلحين يحاولون رده ، كانت تريد أن تسأل الرجل القلق الذي بدا هذه اللحظة مثل وحش يدخل القفص للمرة الاولى ،كان يمشي في الممر بصورة منفعلة لم تره عليهـا من قبل ، ودت أن تسأله ، لكنها آثرت الصمت ، أصوات انفجارات لم تسمع مثلها طوال الأيـام السابقة ، ينخلع لها رأس معدتها ، ويهتز لها داخل رأسها كأن القتال بين خلايا الدماغ . ازدادت حركة التقلص العصبية في معدتهـا . وازداد انقباض قلبها ، مع كل طلقة رصاصة ، مع كل انفجار ، وكان لابد أخيراً أن تسأل الرجل :

ــ أهناك هجوم ؟

ــ اعتقد ذلك .. قال الرجل بغضب ثم تابع : [لعلها قوات الأمن تحـاول أن تضع حـداً ، ما نسمعه الآن هـو صوت مدفعية ملالات ورشاشات ثقيلة ، أظن أنهم يحاولون وضع حد لهذا القتال] .

ــ ألم يتأخروا ؟

ـ تأخروا بالطبع ، لعل سبب ذلك استنفادهم الأساليب السياسية.
ـ أتظن أنهم قادرون على وضع حد لهذا الاقتتال ؟
ـ اذا رغبوا فانهم قادرون ، لكنهم ما زالوا يؤمنون أن اللجوء الى السلاح هو الحل الأمثل .

ـ اللجوء إلى السلاح .. هل السلاح يحسم فعلا ؟
ـ في الحروب الأخرى ، نعم ، يستطيع السلاح أن يحسم . كل الأطراف تملك أسلحتها ، وكما قلت لك ، كل الأطراف وراء متاريسها، والذي لا يخرج من متراسه لا ينتصر ، ويظل في موقع الدفاع . فاذا كانت كل الأطراف على هذه الشاكلة . اذن . لا أحد منهم ينتصر .. كلهم يدافعون فقط . يطلقون قذائفهم ورصاصهم من غير ما هدف في اتجاه الآخر . وطالما ان الذخيرة مؤمنة لكل الأطراف . وهذا حاصل بالفعل من خلال تجار الأسلحة الأذكياء ، التجار الذين ينقلون الى كل طرف ما اشترى الطرف الآخر .. فيضطر لمجاراة خصمه في الشراء . ويربحون هم وحدهم ، ويقتل الأبرياء كل يوم بالعشرات . ما دام هذا يحدث ، فان أحداً لن ينتصر على أحد .

ـ أما لهذا الليل من آخر ؟

ـ بيد الشعب ، بيد الأكثرية الصامتة المختبئة في ممرات بيوتها ، مثلك ومثلي ، والتي هي الوحيدة عاشقة هذا الوطن الجميل ، لأنها لم تحمل السلاح لتقتله ، وتهدم فيه كل شيء كما يفعل الآن هؤلاء المتقاتلون ، بيد الشعب أن يضع حداً لهذا الجنون الصارخ في كل متراس ووراء كل نافذة .. أتصدقين يارنا ، قال لي طالب في الجولة الماضية ، انه يقاتل لأنه ليس مستعداً للامتحانات ، واشتراكه في القتال

سيؤخر الامتحان ، وقد يلغيه ، هذا هو مبرر القتال عنده . وقيسي على ذلك كثيراً . لو دخلت الى نفوس هؤلاء المقاتلين في كل طرف ، لما عرف أكثرهم لماذا يقاتل ؟ ومن هـو عدوه .. في المرة الماضية ، قناص فوق سطح هذا البناء ، أطلق الرصاص على عابر سبيل فأرداه قتيلا ، وفيما بعد عرف أنه قتل أخاه ، فانتحر بسلاحه ، مآس كثيرة حدثت ، وتحدث ، وستحدث . من جراء هـذا الاقتتال الشرس الذي لا نهاية له سوى تخريب هذا البلد وهدم ما بناه الآباء والأجداد وتشويه وجهه الجميل الذي عرف به في كل أنحاء العالم .

صمت الرجل ، كان يلهث كأنه ركض آلاف الأميال ، وكانت معدة رنا تتقلص وتنقبض . أخذت تلامس بطنها مستغربة هـذا الألم الذي لم تعرفه من قبل :

ـ انهم يقتربون أكثر (قالت رنا) [ولقد رفع محمود يده وأسندها الى الجدار وراح يصغي] :

ـ اعتقدنا أنهم توقفوا .. اعتقدنا أن ضمائرهم استيقظت ، لكنني أتخيل الآن أنهم توقفوا ليتسلموا ذخائر جديدة . انهم يلعبون ياسيدتي . يلعبون بمصيرنا جميعاً ، انني نادم الآن لأنني عاملت الوطن بحياد تام ، لم أنتسب الى حزب ، لم أحـاول أن يكون لي رأي مـا . كنت أحب الوطن حباً عذرياً كما يقولون ، أحبه هكذا . دون أن أسهم ولو بنذر يسير في واجب حمايتي له . لو أننا ، نحن الذين نعاني عشقاً مع الوطن ، نظمنا أنفسنا ، لما حدث كل ما حـدث . لكن مصيبتنا نحن الأكثرية الصامتة ، أننا على الحياد ، لم نكن نعرف أن المؤامرات تمر من تحتنا ، وان الوطن يباع ويشرى دون أن يهتم أحد برأينا . لو أتيح لي أن أخرج

حياً هذه المرة من هذا الممر ، لكان هـذا الممر سهماً للتغيير ، للثورة الحقيقية ، على الطائفية ، وحكم الست والجارية ، للتمرد على الواقع الذي نرزح تحت وطأته • لن أقف مكتوف اليدين • لقد عرفت من هم أعداء الوطن ، ومن هـم محبوه وعشاقه • لقد عرفت • واذا خرجت سأعمل مـع عشاق الوطن ضد أعـداء الوطن • سأبحث عنهم هؤلاء المساكـين أمثالي وأمثالك ، الذين يهزهـم الرعب الان ، الجائعون ، الخائفون من الحريق والموت ، هؤلاء هم بناة الوطن الحقيقيون،ومعهم سننهض بهذا الوطن الصغير ، سنحمله على أكتافنا ليقف من كبوته على قدميه • أما هؤلاء الذين ينتحرون الآن في مواجهة المد الثوري ، وفي مواجهة صرخة الفقراء والمتعبين ، هؤلاء سيلفظهم الوطن جانبا ، لقـد عرفهم فرداً فردا ، انه يراهم بعينه الكبيرة ، ويحفظهم عن ظهـر قلب ، هؤلاء الذين يثقبون صدره بالرصاص والقنابل والصواريخ ، لسوف يبصق في وجـوه من تبقى منهم جميعاً • هؤلاء الذين أهانوه وأحرقوه ودمروه • لن ينساهم الوطن • لن يفسح لهم صدر البيت • لقد أثبتوا أنهم مجموعة حقدة وجهلة وكافرين بنعمته عليهم •

واقتطع حماس محمود انفجار قريب جـداً هز البناء كله • أسدل يده الى جانبه وبدأ ينهار ويتساقط ، خشيت رنا عليه • وقفت،واقتربت منه هامسة :

ـ أخائف ؟

ابتسم :

ـ صرت خائفاً مذ أخذت أفكر أن دوراً ما ينتظرني اذا خرجت ، صدقيني هذه اللحظة أصبحت الحياة عندي غالية ولها معنى • صدقيني

ان خوفي السابق كان يجسد أنانيتي ، خوفي السابق على سعادتي فيك ، لكن خوفي الآن صار أكبر من خوفي عليك .. صار بحجم الوطن الذي يحترق في الخارج ، وأنا مغلول اليد هنا . مختبىء وراء جدران هـذا الممر . صدقيني ، ولدت من جديد في هذا الممر الضيق الخانق ، أمام هـذه الكتب التي التهمتها في زمن مضى التهاما دون أن يخطر ببالي أن الوطن بحاجة الى بنائين ومبدعين ، أكثر من حاجته الى قراء ومتفرجين . لقد كنا نقرأ الصحف والمجلات والكتب ونتفرج ، كأن كل ما يحدث لا يعنينا في شيء ، سوى أن نعيش بسلام .

وانتبهت رنا الى الرجل يحاول البحث عن لفافة تبغ ، قالت له :

ـ ولكن سجائرك قد نفدت .

وضحك :

ـ ذلك الأفيون الذي كنت أتفشش به .. لا . لا . سوف ألغيه من حياتي ، سأستغني عنه منذ الآن . صدقيني سأحـاول أن أستخدم ارادتي على نحو مختلف ، سأحاول أن أكون ايجابياً في كل شيء .

واشتدت المعركة في الخارج . كأن المتقاتلين يقتربون من بعضهم بعضاً بصورة وحشية وشرسة . وكادت رنا تتساقط لشدة ألمها الذي يحرق معدتها . تركت الرجل وأسرعت الى دورة المياه ، وعادت مرتاحة . ومع صراخ القنابل ، ترددت على دورة المياه . وأخذ الخوف يتشبث بها من جديد . وفي لحظة ما ، اهتزت الأرض من تحتها ، ولـم تشعر الا وجسدها يقفز بها عاليا ثم ينخبط الى الأرض . ثم وجدت نفسها على صدر الرجل . وقعا معا . الدخان والغبار والحجارة والكتب والهاتف . كل مافي الممر انقلب عالياً سافلاً . بل ان شيئاً ساخناً تدفق على عينيها ؛

حاولت أن ترفع يدهـا ، لم تستطع ، كان كـل شيء ثقيلا ومسمـّراً في مكانه • مشدوداً الى الأرض أو الى السقف •• لم تكن تدري ما حدث• ربما قامت القيامة • ربما زلزلت الأرض زلزالهـا • وصارت تصرخ • لكن محمود هذه اللحظات كأنه نسيها ، لمحته شبحاً من خـلال الغبار والدخان ، مدت يدها اليه • لم ترتفع يدها • هتفت باسمه • لم يخرج صوتها ، معدتها تحترق • حاولت أن تحرك قدمها • أحست أن البناء كله يجثم عليها • استنجدت بكل ما تبقى فيها من قوة • لكن صوتهـا ظل ضعيفاً ضعيفا كأنه يخرج هامساً من بين شفتيها المتيبستين ، وكادت تشعر أنه تخلى عنها ، ويبحث عن منفـذ يخرج منه وحده • عرقت • اغتسلت بالعرق والدموع • الآلام تشتد في جميع أنحـاء جسدها • ثم ، ثم •• وكأن العاصفة غادرت فجأة ، انقشع الغبار عن وجهه وهـو ينحني عليها ويحملها بين ذراعيه • اذ ذاك • اذ ذاك فقط • غامت الدنيا أمام رنا ، وتراخت • تراخت • حتى فقدت الحس بكل شيء •

- ١٧ -

استيقظت رنا • فاذا بها ممددة في المطبخ والرجل الى جانبها ، بدا لها للوهلة الأولى ، كأنه عشرات الأشخاص يسألونها دفعة واحدة •

ـــ هل أنت بخير ؟

كان الصوت صوته ، مخنوقاً ومجرحاً ومنهاراً :

ـــ هل أنت بخير ؟

وودت أن تقول أنها بخير • لم تستطع • أحست أنها كومة حطام، وكأن شيئاً ما يلتف حول رأسها وجبينها • لم تقدر على رفع يدها • جسدها مهروس كأن صخرة تجثم على صدرها • ومرة أخرى حاولت أن تقول : انها بخير • كانت شفتاها تتحركان الا أن صوتها لم يخرج من حنجرتها • لكن الرجال المتشابهين أمـام عينيها الغائمتين ، ظلـوا يسألونها بصوت ذي نبرة واحدة : هل أنت بخير ؟ رنا •• أرجوك •• هل أنت بخير ؟ قالت مراراً انها بخير ، وظل سؤال الرجال المتوحـد : هل أنت بخير ؟ وفرحت عندما امتدت يد الى يدهـا لأنها تستطيع أن تتحدث بأناملها الآن • ضغطت على اليد بكل ما فيهـا من أحاسيس الخوف والفزع والتمسك بالحياة • وانتبهت أن في وجـوه الرجـال

المتعبين الذين فوقهـا الآن ، ابتسامة واحـدة .. ابتسامة مطمئنة .ـ فأغمضت أجفانها ، استسلمت الى حياة بدأت تشتعل في جسدها خلية وراء خلية ، وعصبا وراء عصب ، وتدب الدماء في عروقها من جديد ، بدءاً من رأسها حتى أخمص قدميها ، مع كل هـذا كان الألـم يصرخ أيضاً في كل أنحاء جسدها المستلقي فوق بلاط بارد . وكان العالم خارج رأسها صامتاً صمت الموت ، صامتاً كأنه يجيء اليها من قـارة أخرى . مرتداً الى الوراء آلاف السنين ، ذلك العالم البكر السخي بالماء والأرض والثمر ، وطن العصافـير والأجنحة الملونـة ، وتلك العروس الصغيرة البريئة ، تتعثر بثوبها الأبيض . وتخطو نحوهـا بخطى بطيئة وهـي تهمس « ماما .. ماما .. اشتقت لك .. اشتقت لك ياماما » وتحس بالقوة تملأ ساعديها ، ترفعهما باتجاه الصغيرة وتهتف لها « تعالي إلي.. تعالي إلي . كـدت أفقدك . وكدت أنسى أنك مني .. تعالي الي » وتركض الصغيرة ولا تصل . وترى رنـا كأن الأرض تميـد تحتهـا وتتشقق ، وتحدث انهيارات ، ثم تصبح الصغيرة في الضفة الأخرى . الأرض انشقت نصفين ، وكل منهما يبتعد عن الآخـر بسرعة رهيبة .. وابتعد صوت الصغيرة كذلك . لكن يدها تلوح وتلوح . وترحل معها آلاف العصافير ، كأن الجنة هناك ، وكأن رنا ظلت في أرض الجحيم ، تحترق ، ولا من يمد يده ليساعدها . وأحست أنها تهتف بملء صوتها، صراخاً لا حدود لقوته ، وعندما فتحت أجفانها.رأته ذلك الرجل الوحيد بالقرب منها . محمود يناديها حنونا وخائفاً » رنا .. حبيبتي .. هل أنت بخير ؟ » ورأته جيداً هذه المرة .. هو نفسه ، بوجهه الأسمر المتعب وبعينيه المرهقتين ، وبشفتيه الغامقتين المرتجفتين ، وبيـده المضطربـة يلامس جبهتها الساخنة . انه هو ، لم يفارقها ، هذا الغريب الذي لجأت

اليه وصارت منه وفيه • وتأملته ، لعل هذه اللحظة هي فرصتهاالوحيدة لتتأمله ، فزعه عليها يرتسم في كل حركاته ، تلمح في عينيه حنانا يجعل الأرض كلها تنحني أمامها ، هناك كدمة زرقاء على جبهته • أرادت أن تسأله ، لكنه مرة أخرى ألح « رنا •• هل أنت بخير ؟ » أشارت له بعينيها « أن نعم » فاذا به يستعيد هدوءه ، ويأخذ يدها الى صدره ، ففمه ، ويقبل أناملها بنهم • وحركت يدها الأخرى فتحركت • أرادت رنا أن تهتف « يارب •• احفظنا يارب » تحركت شفتا رنا مراراً على هذه الصلاة • ثم خرج صوتها ضعيفاً ضعيفاً :

ــ قل لي يامحمود •• ماذا حدث ؟

ــ كدنا نموت ياحبيبتي •• كدنا نموت • انفجرت قنبلة في الصالون ، وتهدم فوقنا جزء من الممر ، سقط حجر على رأسك • كما أن باب الصالون بكامله اقتلع من مكانه وسقط فوقنا معاً • لا أدري • كل ذلك حدث بسرعة ، حتى فقدت قدرة التصرف ، وانتبهت الى جرح في رأسك • حملتك ، وأسرعت بك الى المطبخ • (وعاود سؤاله القلق) هل أنت بخير ؟• قولي انك بخير •

ــ أنا بخير •

ــ الحمد لله • الحمد لله • كدت أجن ، خشيت عليك • يا إلهي • من شدة الانفجار اصطدمت مراراً بين الجدارين ، واستقر الباب فوقك بعد أن صدمني في جبهتي ، لحظات رهيبة • لا أستطيع أن أصفها لك لقد نجونا بأعجوبة • لنا حظ في الحياة • سنعيش •

وضغط محمود على أناملها ، فهمست :

ــ أسعفتني •• أشكرك •

ـ أحمد الله أن النزف توقف بسرعة • خفت عليك ، خفت •

واتبهت رنـا الى قميص محمود ، كان ممزقـاً من أسفله • وقـد انتزعت منه قطعة كبيرة • أشارت بيدها نحو القميص :

ـ ربطتَ رأسي به ؟

ـ لا يهم •• لا يهم • المهم أن النزف توقف •• هل تشعرين بألم•

ـ أشعر به •• أجل ، لكنه ليس شديداً على كل حال •

ـ الحمد لله •• الحمد لله • سننجو يارنا •• أقسم لك سننجو •

تيقظت رنا من جديد • ما زال جحيم المعارك في الخارج مشتعلا • الرصاص والقنابل ورائحة الحرائق ، ووحدة الحياة اذ تموت •

- ١٨ -

تحاملت رنا على نفسها ووقفت • أحست بألم في كل أنحاء جسدها كان القتال في الخارج شديداً • قال الرجل :

ـ سنحاول الخروج مهما كلفنا الأمر • معظم القذائف تتساقط في هذه المنطقة وعلى هذا البناء بالذات ، اذا بقينا سنموت • في الخروج لدينا أمل في النجاة •

كانت رنا محطمة تماماً ، وشعرت أنها ستكون عبئاً عليه ، قالت :

ـ بالنسبة لـي ، لا أستطيع أن أتحرك ، كـل جسدي يؤلمني • أرجوك اذهب وحدك •

ـ مستحيل ، نخرج معاً أو نبقى معاً •

التفتت رنا صوب نافذة المطبخ • البناية المجاورة تحترق بأكملها ، حتى أن لهيبها يكاد يطال البناء الذي هما فيه • قالت :

ـ لن نخرج من نافذة المطبخ • كما فعلنا سابقاً •

ـ الخروج منها خطر أمام هذه النار الملتهبة والحواجز التي خلفها•

ـ اذن سنخرج من الباب الرئيسي •• سنرفع أيدينا مستسلمين•• هل يطلقون علينا ؟

ـ لسنا في ساحة حرب شريفة •• لذة القتل سيطرت على الغرائز ، علينا أن نحاول على كل حال • لابد من محاولة ، والا سنموت تحت الركام أو بين الحرائق •

طلبت رنا ماء ، صب لها كأساً وشربتها ، ثم تمنت أن تغسل وجهها• صب في راحتيها بعض الماء ، وما أن سفحته على وجهها حتى أحست بانتعاش ، وبطعم الغبار على شفتيها ، وخطت نحو نافذة المطبخ بصعوبة، لم تستطع أن تستنشق الهواء بعمق • اذ سرعان ما أصابتها نوبة سعال حادة ، كان الدخان الأسود يملأ الجو ، وثمـة صرخات بعيدة تستنجد وتولول • الا أن رنا لم تلمح انساناً ما • قالت :

ـ الا من منفذ ، من هنا ؟

اقترب محمود ، وراح ينظر في كل الاتجاهات ، وقال :

ـ الخطر من هنا مزدوج • القناصة • النار • المتاريس • أفضل الخروج من الباب الرئيسي •• هل توافقين ؟

ـ أنا معك ، وأرجو أن تقرر بنفسك الصواب من الخطأ •

بدا محمود منهكاً ، كان يعصر جبهته براحته ، ثم يتأمل رنا بكثير من الخشوع ، وابتدرته قائلة :

ـ اعتبر مسؤوليتي من مسؤوليتك على نفسك • اياك أن تشعر بأي حرج •• تصرف كما لو كنت وحـدك • أعرف أنني سأضايقك • وأعرف أن فرص النجاة متوفرة لك لو أهملتني •

وكانت ستستمر • الا أنه رفع يده في وجههـا يرجوها أن تصمت ، وسكتت • اقترب منها ، وأخذ رأسها الى صدره • ثم ابتعد قليلا وقبلها من جبهتها المعصوبة ، ثم اشتعلت النار في شفتيه ، فقبل وجهها وفمهـا وعنقهـا ، همس :

ـ كيف يخطر ببالك أن أتخلى عنك وأنت حبيبتي ، حياتي كلها من قبل ومن بعد . انك اشتعال الأمل في جسدي ، والرجاء في أعماقي، انك المرفأ والخلاص والوصول الى البيت الآمن . انك السلام ، ومـا أحوجني بك الى السلام ؟ رنا ، سيدتي وحبي وابتهالي وصلاتي ، كيف أتخلى عنك ؟ ولا يخطر في بالي سوى نجاتك أنت . أو تظنين كل هـذا الظن ؟ أنت كل ما أتمناه الآن أن يبقى لي ، يبقى حياً ، يصل الى شاطىء السلامة . أنت وحدك من دون كل الناس . يامن عشت معي هـذه اللحظات القاسية ، وكنت سندي ، وكنت الروح والرئة التي أتنفس بها لولاك،لاحترقت مثل خشبة يابسة . رنا ، ياحبيبتي ، أعطيتني بوجودك وجوداً حقيقياً . حركت بي كل شيء .. فكيف يخطر ببالك أن أتخلى عنـك ؟

وكادت تقترب منه هي الأخرى ، تأخـذ يديـه وتقبلهما . الا أن انفجاراً آخر ، ألقى بكل ما في رفوف المطبخ من علب زجاجية وغيرهـا الى الأرض . اصطدما بعضهما ببعض . ثم كل منهما بالجدار ، والبراد ، وإمتلأ البيت بالدخان . نسيت رنا آلامها واندفعت نحو الممر ، ومن خلفهـا الرجـل ، فاذا بألسنة النار تدخل من باب الصالون شديـدة ومتوحشة . أسرع الرجل وتمسك بالمكتبة ، حاول جرها ، كانت ملأى بالكتب ، فأخذ يزيح صفوفها صفاً صفاً ، ويلقي بهـا أرضاً ، بعضهـا التهمته ألسنة النار التي اشتد هجومها على الممر . حاولت رنا مساعدة الرجل ، فصارت تزيح الكتب من حول قدميه ، واستطاع الرجل أخيراً ازاحة المكتبة . رماها أرضاً ، وجرها قليلا ثم فتح الباب . أمسك بيد رنـا وشدها الى الخارج ، وانطلقا نحو باب البناية ، وتعثرت رنا بجثة شاب مرمية على الطرف . كان مستلقياً على صدره وتحته بركة من الدم

الجاف ، صرخت ، والتصقت بظهر محمود ، الذي كان قد توقف متلفتاً بحـذر يميناً ويساراً • كانت الأبنية الملاصقة الأخرى تتصاعـد منهـا ألسنة اللهب قال لرنا :

ـ استجمعي قوتك •• سنحاول قطع الشارع الى الجهة المقابلة ، الى هذه البناية التي تواجهنا تماما ، لا أرى أحداً فيها ، قد تكون خالية هل أنت منتبهة لمـا أقول ؟

كانت رنا ترتجف ، تصطك ركبتاها بشدة • خشيت أن لاتستطيع الركض •• هتفت بالرجل :

ـ انج بنفسك •• أرجوك •• اتركني •• اتركني •

وحاولت أن تدفعه ، الا أنه أمسك بيدها ، وقفز خارج المدخل ، فقفزت خلفه ، وراحا يركضان معاً ، قاطعين الشارع العريض،متجاوزين جثثاً وحجارة وحفراً ، الى أن وصلا مدخل البناء المواجه • ثم قفزا الى زاويـة المصعد • كان كلاهمـا يرتجف • وكان العرق يتفصد منهمـا بغزارة • وأحست رنا أنها مبتلة تماما • لسانها جاف • وأسنانها تصطك كانت‌ترتجف مثل خرقة تعصف بها الريح ، وأخذ محمود يرقب ما حوله بحذر شديد ثم قال :

ـ رنا •• لا تخافي •• لقد نجونا ، أنظري •• لقد نجونا •

لم يكن في البناء ما يوحي أن أحداً فيه • وتساءلت رنـا :

ـ هل نطرق هذا الباب ؟

وما كاد الرجل يقترب من الباب ، حتى داهمتهما رشقات متواصلة من الرصاص ، وأراد الرجل أن يتجه برنا نحو السلّم ، الا أنهما سمعا معاً خطوات تهبط • انحبست أنفاسهما لحظة ، ثم انطلقا من المبنى وراحا

يركضان ملاصقين جدران الأبنية الأخـرى ، وهمّا أن يقطعا شارعـاً متفرعاً ضيقاً ، لولا أن رصاصاً غزيـراً تساقط حولهما ، فارتميا تحت شاحنة كبيرة متهدمة . وزحف كل منهما في اتجاه الآخر الى أن تلاصقا.

وبدا لهما ، كأن المعركة أيضاً ، تركض هنا وهناك ، وكأنها ضلتهما ، فابتعد اطلاق الرصاص رويداً رويداً ، وهما تحت الشاحنة الآن ، كأن المعركة انتقلت الى مكان آخر . قال :

ـ هيا .. سنركض في الاتجاه الآخر .

ـ لن أستطيع الحراك .. اذهب .. اتركني أموت .

كانا ملتصقين بالأرض تماما ، وكانت رنا تشعر أن الشاحنة كلهـا تجثم على ظهرها .

قال الرجل مشجعاً :

ـ حتى الآن .. كتبت لنا النجاة .. سنعيش يارنا .. سنعيش !

لم تجب رنا ، وهذه اللحظة زكمت أنفها رائحة عفنة ، فانتبهت الى جثة طفل منتفخة ، وقد تجمدت بركـة من الـدم تحتهـا . فصرخت « يا الهي » وحاولت أن تسد أنفها بيدها ، لكن الرائحة كانت شديدة وقوية ، وأحست بمعدتهـا تجيش . ثم أخـذت تتقيأ بشدة . أمسك الرجل رأسها بصعوبة ، وهتف :

ـ لا تقاومي .. اخرجي ما بمعدتك .. ستستريحين .

ومع التقيؤ الشديد ، كانت تحس بألم قاس في رأسهـا وعينيهـا . انسحب الرجل من جانبها زحفاً الى الجهة الأخرى ، وجـر جثة الطفل بعيداً عن عيني رنا . الا أن رائحة جثته ظلت تعبق في الجو . ولحظـة استعادت رنا بعض أنفاسها وسيطرتها على نفسها ، تذكرت الجثة . انها

لطفل لم يتجاوز الخمسة أعوام ، واذا بهيلدا أمام عينيها تنادي « ماما •• ماما » فداهمتها نوبة من البكاء الحاد ، وأخـذت تجهش وتصرخ وتولول : « المجرمون •• انهم يقتلون الأطفال •• انهم يطلقون الرصاص على الأطفال » •

وحاولت أن تسحب نفسها من تحت الشاحنة • الا أن محمود عاد وتمسّك بها ، وألصقها بقوة الى الأرض ، وهو يصرخ بها :

ــ رنا •• رنا •• أجننت ؟

ــ اتركني •• اتركني •• دعني أصـرخ في وجوههـم ، هؤلاء الأنذال • انهم يقتلون الأطفال • أرأيت كيف استقرت رصاصة واحدة في جبين هذا الطفل ؟ لـم يقتلوه مصادفـة •• أرأيت كيف استقرت رصاصتهم في جبينه مباشرة •• بين عينيه تماماً •• كيف يفعلون ذلك ؟

ثم أخذت تصرخ وتبكي معاً • كانت يد الرجل هـذه المرة تلامس ظهرها بحنان ، ثم عنقها ورأسها • وما ان هدأت قليلا حتى صاح بهـا محمـود :

ــ رنا ، انها فرصتنا الوحيدة ، اذا اجتزنا هـذا الشارع المتفرع سننجو بالتأكيد ، تخلي عن جنونك وكوني عاقلة ، يجب أن نحـاول مرة أخرى ، أسمعت •• سنخرج ، ونعدو ، عليك اللحاق بي فقط • أنا أعرف المنطقة • هنا في آخر هـذا الشارع كنيسة • اذا وصلنا اليهـا نكون قد نجونا تماما •• صدقيني • لم يبق لنا إلا القليل لندخل باب الحياة من جديد •

كانت رنا تهمهم بكلمات يصعب فهمهـا ، وكانت تمسح وجههـا براحتها ، التي امتلأت الآن ، بالوحل والتراب • وكان قلبها يخفق بشدة

وأخيراً التفتت نحو الرجل ، كان مكفهر الوجـه هو الآخـر ، جروح طفيفة وحروق سطحية تملأ وجهـه وصدره ويديـه ، وأحست بشفقة تجاهــه :

ــ أما تستطيع أن تخرج وحدك •• أما تستطيع ؟•

ــ هل عدنا الى الاسطوانة ؟ قلت لك لن أتحرك إلا معك ، يجب أن نستغل هذا الهدوء ونخرج ، هل سنبقى هنا منبطحين على الأرض ، تحت هذه الشاحنة ، لا نعرف مصيرنا ؟ انها فرصتنا الوحيدة الآن ؟

ولحظة سكت ،أمسك بيدها وأخذ يشدها زاحفاً • وما أن اقتربا من الرصيف حتى وقف والتصق بالشاحنة • كذلك فعلت رنا بصعوبة• كان الرصاص بعيداً • وكذلك الانفجارات ، ولقد بدا الشارع المتفرع الضيق ميتاً • الجثث هنا وهناك • نساء وأطفال وشيوخ • ولم تلمح رنا جثة واحدة والى جانبها سلاحها • قالت :

ــ ألا يموت المتقاتلون ؟ أنظر ، انك لن ترى جثة واحــدة وسلاح صاحبها معــاً •

أجابهــا :

ــ السلاح أغلى من الانسان •• ربما قتل مسلحون وسحبهم رفاقهم أو ربما تركوهم في الشارع وأخذوا أسلحتهم ، لكن القتيل الــذي لا ينتمي الى أي فريق ، لا أحــد يسحب جثته ، يتركونه هكذا منتفخاً ، تشوهه الجراذين والفئران ، ويبقى عرضة للريح والشمس والظلام الى أن تنتهي الحرب اذا انتهت •

وكانت بعض الحرائق تنشب هنا وهناك ، الرصاص يترك بصماته في كل شيء ، في الجدران والنوافذ والسيارات المتوقفة على جوانب

الأرصفة ، ثم رائحة الموت التي تختلط مع رائحة الدخان المتصاعد من كل مكان •

قفز مجمود الى الجدار المقابل ، وتبعته رنا ، قال صائحاً :

ـ اذا استطعنا اجتياز هـذا الشارع نصل الى الكنيسة • كوني حذرة ، واتبعي خطواتي ••

تراكمت أفكار كثيرة في رأس رنا • انها تريد الحفاظ على هـذا الرجـل ، الذي تواجـه وايـاه الموت • الموت الذي يلعب الآن فوق رأسيهما وبين أقدامهما ، يداعبهما بوجهـه البشع الذي يرتسم علـى عشرات الجثث المرمية على مداخـل الأبنية وفي عرض الشارع وعلـى أطراف الأرصفة ، وتخيلت رنا ان كل هؤلاء الموتى ، مـروا بلحظـات مشابهة لتلك اللحظات التي هي فيها الآن مع هذا الرجل المستميت من أجل الحياة ، وفجأة ، قفز الرجل خطوات سريعة ، وفي حين لم تتحرك هي من مكانها ، فهتف متوسلاً :

ـ هيا يارنا •• أرجوك

تبعته بسرعة ثم التصقت به ، أبعدها عنه :

ـ لا تلتصقي بي •• أفضل •• اذا أطلقت النار لا تصيبنا معا •• كوني على بعد أمتار مني •• ثم قفز ، وقفزت خلفه ، وبدا لرنا كأنهـا تبتعد عن أرض المعركة • اذ أخذ صوت الرصاص والانفجارات يخف ، عاودها بعض الاطمئنان ، فتشجعت ، وتخيلت اللحظات التي ستلتقي فيها بزوجها وابنتها وأهلها •• ستنجو •• ستنجو • وهتفت : « يارب •• يايسوع •• يارب ، بحق كل القديسين أوصلنا الى النجاة •• بحق الآب والابن والروح القدس • لا تدع الموت ينتصر » وأمسك الرجل بيدها وركض وهو يهتف :

ــ ها هي الكنيسة يارنا •• هاهي •

وبدا لهـا درج الكنيسة الضخم الآن : باب النجـاة • خطوات ، والسلام يحل وتنسى • ولكن ، فجأة ، انفتح الجحيم • وانهمر الرصاص ، عليهما ، وسقط الرجل على أول درجة من سلم الكنيسة • ثم انحدر • ورأته رنا يسقط في هـوة • تحاول أن تمسك بيده ، وكانت قبضتاه مفتوحتين باتجاهها • ثم ارتطم رأسه من الخلف بالدرج ، وانحرف ، ليستقر على الطرف الموازي له مشدوه العينين ، مفتوح الفم ، وثمـة ثقب فوق القلب تماما يتفجر بالدم • صرخت رنا • تلفتت صوب سطوح الأبنية المحيطة ، وظلت تصرخ • ثم ارتمت على الرجل • كان يرتعش • لحمه يشتعل تحت راحتيها :

ــ محمود •• محمود •• قتلوك يامحمود •• قتلوك ياحبيبي •• قتلوك •

وأخذت تهز جسد الرجل • الا أن الحركة الوحيدة فيه كانت تتجسد في الثقب ، وراحت تصرخ :

ــ محمود •• ردّ علي يامحمود •• لا تمت •• لا تمت • هاهو باب الحياة •• وصلنا اليه •• وصلنا اليه •• أرجوك •

وتلاشى الجسد بين ذراعيهـا ، فهبت رنـا تصعد درج الكنيسة ، وأخذت تخبط على بابها بكلتا قبضتيها صارخة : « افتحوا •• افتحوا » لـم يفتح الباب ، هبطت الـدرج وركضت في الشـارع تصـرخ : « أنقذوني •• أرجوكم •• لا تدعوه يموت •• أنقذوه » ولـم تكن تسمع رنا إلا صدى صوتها ممتزجاً بأصوات الرصاص والانفجارات ، عادت الى الجسد الذي كان قد سكن فيه كل شيء ، حتى الـدم قـد توقف عن التدفق • بعد أن شكل بركة سخية تحت القتيل • كانت عيناه

مصوبتين نحوهـا ومنفرجتين بشدة ، بل ان راحتيه ظلتا مفتوحتين كأنه ما زال يناديها . سجدت رنا الى جانبه . كانت تبكي بصوت متحشرج: « أخيراً تخليت عني يامحمود .. أخـيراً . هكذا سقطت . ولم تعـد تشدني من يدي . لم تعد تركض فاسحاً أمامي طريق الحياة . ردّ علي أرجوك . قل لي كلمة واحدة » .

وظلت الجثة مكانهـا دون حراك . وتمنت رنا هـذه اللحظة أن يصوب قناص ما رصاصة عليها لتسقط الى جانبه ، بل رفعت رأسها الى سطوح الأبنية وراحت تصرخ بملء صوتها المفجوع أن يطلقوا الرصاص عليها ، ولعلها تلك اللحظة لمحت ملثماً وراء نافذة ، بندقيته تلمع تحت وهج الشمس الساطعة ،صرخت فيه ، نادته « أيها الجبان .. » وأخذت تخبط على قلبهـا « هاهو قلبي أدلك عليه .. أطلق .. أطلق » لكن الملثم ظل جامداً مثل الصنم . وظـل الرصاص يلعلع ، الا أن رصاصة واحدة لم تصل اليها . جثت من جديد على ركبتيها وأخذت رأسها بين راحتيها . وصارت تئن وتصرخ وتولول .

استعادت رنا بعد لحظات ، بعض روعها ، فزحفت نحو جثة الرجل الساكنة . ولا تدري كيف تهيأ لها أن الذراعين المفتوحتين والقدمـين المنفرجتين أخذت شكل صليب أحمر . مدت راحتها الى وجهه وأسبلت له أجفانه « قبل لحظات كان صوته ملء الدنيا .. آخر كلمة صاح بها « رنا » . » ثم شدت ساعديه الى صدره « كم كان دافئاً هذا الصدر !» وألصقت قدميه الى بعضهما . رسمت شارة الصليب على وجهه وصدره، وانحنت فوقه ، قبلته من فمه ، « الفم الذي أحبت أن يكون ملك فمها الى الأبد » وامتدت يدها إلى صدرها وانتزعت الصليب الصغير ووضعته على صدره ، ثم قبلت الصدر والصليب وارتمت بكل جسدها عليه .

مضت لحظات ، ورنـا تبكي فوق الجثة بصوت مكتوم ، وتتمنى رصاصة تبقيها في مكانها . لكن الرصاص هذه المرة بدا لها بدويا يرتحل وعباءته على كتفيه ، ثم عم السكون كل الأرجاء . وخيل اليها كأنهـا تسمع صوت محمود في الريح والشمس والسكون المخطوف من بين الأموات « انجي بنفسك يارنا .. من أجلي أنا .. اذهبي الى الحياة .. لا تموتي .. من أجلي لا تموتي . هيا قبل آن يدركك الرصاص منجديد هيا .. إذهبي » .

وقفت رنا ، رفعت يدها تلوح لمحمود .. ولأول مرة تراه ينام بهدوء بهدوء بهدوء .. ابتعدت عنه . واتتبهت انها تمشي وسط الشارع تماما . جثث جثث جثث . لم يكن محمود وحده على قارعة الطريق ، له رفاق كثيرون ، منحنون على الأرصفة ، ومحترقون داخل السيارات ، منكبون على وجوههم . وكانت الدمـاء قد غطت الأرصفة والاسفلت . أمـا الرصاص فقد عاد الآن مليئاً بالحياة ، يركض شاباً من فوهات البنادق والمدافع الرشاشة .

وظلت رنا تمشي دونما هـدف . كان الرصاص يلامس شعرهـا المتطاير ، يداعب أنفها وأذنيها . يمرق كالسهم أمام عينيها . وكانت تتحداه مشرعة صدرها ، مشرئبة بعنقها ، وهي تهذي لا تعرف ما تقول، تختلط في ذهنها الأشياء ، وتتقدم كهرة متوحشة . عيناهـا تسبحان بالدموع التي تلاصق شفتيها ثم تبلل ذقنها . وكانت الحرائق تتصاعد من جانبي الشارع ، والدخان يشكل سحابات سحابات فوق رأسها . وما ان وصلت الى نهايته حتى تلفتت الى الوراء ، فبدا لها الشارع مثل شاشة سينما تقدم لها خرابا لم تره قط . وبحثت بين كل هـذا الدمار على زاوية ما في الشارع . الى أن لمحت درج الكنيسة وبابها المقفل .

وحاولت أن تمسح الدموع المنسابة على وجهها • فاذا بيدهـا تصطدم بخصلة من شعرها • أهذا شعرها ؟ ولم هذا البياض الذي فيه ! أهذه يدهـا ؟ ولم هذا التجعد المخيف كأنهـا إمرأة في التسعين • وكادت تعود من حيث أنت ، لولا أن يداً قوية أمسكت بها من ذراعها ،وتلفتت لتجد رجل أمن صارم النظرات يقودهـا الى سيارة متوقفة في الزاوية وسألوها من تكون • لم تجب • أرادوا أن يعرفوا عنها شيئاً • لكنهـا انفجرت تبكي ، وما ان استقرت داخل سيارة الجيب ، حتى انطلق بها رجال الأمن بعيداً • وكان الرصاص يلعلع مبتهجاً شديداً • وأرادت أن تستنجد بمحمود ، فلم تجده ، لكن يـد رجل الأمن القوية أعادتها الى مكانها من جديد • وصاحت : الجبناء •• الجبناء •• قتلوه • تركوا رصاصهم في قلبه •• في قلبه ، وسألها رجل الأمن :

ـ « من الذي قُتل ••؟ زوجك ! •• »

ضحكت رنا هذه المرة بصوت عال :

ـ « لا ياسيدي •• لا •• لقد قتلوا المسيح •• صلبوه من جديد برصاصهم • تركته هناك على درج الكنيسة •• اذا كنتم شجعانـاً •• هيا بنا نستعيده من هناك » •

لكن سيارة رجال الأمن ظلت تنهب الريح بعيداً بعيداً •





«الممر» رواية يتماشى فيها الفردي والاجتماعي بتوازن وتواز (. . .) انها تجربة حب فردية ناجحة (. . .) و«الى اي حد يفلح التعاطف الانساني والتجاوب الغريزي بين رجل وامرأة، من ديانتين مختلفتين، في حل الازمة الطائفية التي انقذفت في شوارع بيروت قنابل ورصاص وصواريخ لا تبقي ولا تذر؟

الرواية تمضي حسب ايقاعات بسيطة اساسية، وهي ناجحة بسبب الاشجان التي يثيرها فينا التقابل بين المعاناة والفعل، التأمل والتحول، الغنائية والموضوعية.

«محيي الدين صبحي»

سما كاتب «الممر» الى مرتبة بناء حبكة مفترضة ناشئة عن السرد الروائي وقد استطاع القيام بذلك عن طريق تتالي المشاهد الخاصة بكل وصف على حدة. وجعل هذه المشاهد تتكرر - مهما تكن صورتها - امام اعين القارىء في اوضاع مختلفة وضمن حالات محددة بحدود سماع ما يجري خارج الممر من قتال. مما خلق في الرواية شيئاً يشبه المحتوى (. . .).

ان مضمون رواية «الممر» يشير الى دراية ياسين رفاعية وخبرته في العمل القصصي، فخيوط الرواية كثيرة، متعارضة حيناً ومتوازية حيناً آخر. ولكن المؤلف قادها باحكام الى النهاية، فوفر لروايته متعة وتشويقاً واقناعاً.

سمر روحي فيصل





المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً «موكيالي» بيروت - ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت